# طبائـــــــع أهـــــل مكـــــة

إعداد


الدكتور
محمد إقبال فرحات
عميد شؤون الطلبة
جامعة عجمان للعلوم

الدكتور
عواد حسين الخلف
رئيس قسم النشر العلمي
جامعة الشارقة


**بحث مقدم إلى ندوة**

**مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ**

**المقدمـــة:**

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهداه إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن الناس هم الناس، وفيهم الطيب والمقتصد والخبيث، تشترك في ذلك الشعوب كلها، غير أنها تتفاوت بنسبة هذه الأنواع الثلاثة بعضهم إلى بعض :

فمن الشعوب من تطغى نسبة الخبيث من أهلها على من فيها من الطيبين والمقتصدين، فهي من شر الشعوب، ومنها من يكثر فيها العنصر الطيب وتكون له الكلمة النافذة والتوجيه المتبع في المجتمع، فهي من أكرم الشعوب معدناً، ومنها من تعظم فيها نسبة المقتصدين فيعم فيها الخير ويستتب الاستقرار .

وقد أكد الرسول ﷺ تفاوت البشر في الصفات والطباع في قولهﷺ : " الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا "[١].

---

( ١ ) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى "، ٦ / ٤١٧، حديث ٣٤٩٩ . وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة، ٤ / ٢٠٣١، حديث ٢٦٣٨ .

وأيضاً ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال : إنَّا لقعود بفناء رسول الله ﷺ إذ مرَّت به امرأة، فقال بعض القوم : هذه ابنة محمد ﷺ ( والحقيقة أنها كانت درة ابنة أبي لهب، وكانت زوجة للحارث بن نوفل، ثم تزوجها دِحْية الكلبي )، فقال رجل : إن مثل محمد ﷺ في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن . فانطلقت المرأة، فأخبرت النبي ﷺ ، فجاء عليه السلام يعرف في وجهه الغضب، ثم قام على القوم فقال : " ما بال أقوال تبلغني عن أقوام ! إن الله عز وجل خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم . فأنا خيار من خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم "[١] .

فالأصل في التفاضل التقوى، وكرم المعدن فضيلة في الجملة، ومظنة لوجود الخير فيه أكثر من غيره .

ولا يعرف التاريخ نبياً من أنبياء الله، ولا صاحب دعوة إلى الخير، استجاب له من أتباعه رجال، يستحقون أن يعدوا من أولياء الله الصادقين المجاهدين، كما استجابت قريش،والأنصار، وسائر العرب للدعوة المحمدية .

وكان لكرم معدن قريش الأثر العظيم في هذا الامتياز الذي كان لبيئة الإسلام الأولى .وصدق عبد الله بن مسعود :" إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه . ثم نظر في قلوب العباد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه"[٢] .

( ١ ) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ٤ / ٨٣، حديث ٦٩٥٣ و صححه، ورواه من غير هذا الإسناد الطبراني في المعجم الكبير، ١٢ / ٤٥٥ .

( ٢ ) أخرجه أحمد في مسنده : ١ / ٣٧٩، وقال محقق المسند الشيخ شعيب :" إسناده حسن". وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد : ١ / ١٧٧ – ١٧٨، ونسبه إلى أحمد والبزار والطبراني، وقال :"رجاله موثقون" .

وإن أعظم معجزات الإسلام بعد القرآن الكريم، ذلك الانقلاب العجيب الذي حدث في الجزيرة العربية، والعراق، والشام، ومصر، وشمال أفريقية، وهي أمهات البلاد التي دخلت في الإسلام على أيدي رجال ربّاهم رسول الله ﷺ. وقد حار المتتبعون لحركة التاريخ في تعليل ذلك الانقلاب الذي شمل الدين، واللغة، والأخلاق، والثقافة، والعقلية، والوجهة، والأهداف .

وقد حاول مثله الكثير من المستعمرين في قديم أو حديث، بأحدث الأساليب، ومختلف الوسائل ففشلوا ؛ لأنهم لم يكونوا كأولئك الذين كانوا يعرفون الأمم أكثر من معرفتهم بأنفسهم : لا بكتب يؤلفونها ، ولا بمحاضرات يلقونها ، ولا بالجدل والمراء والمناظرات ؛ ولكن بعرض الإسلام على الناس عرضاً عملياً يراه الناس في أخلاق هؤلاء الفاتحين، وفي أحكامهم، ومعاملاتهم، وتصرفاتهم .

فكانت بذلك تلك المعجزة الفريدة في تحويل مجرى التاريخ والإنسانية. ولو بقيت قيادة الإسلام في أيدي أهله الأولين، واستمرت طريقتهم على ما كانت عليه، لكانت اليابان، وأوروبا، وأمريكا، والصين، وكل أفريقيا، وكل آسيا شعوباً إسلامية .

والذين يقيسون بطولة القادة والفاتحين بمقياس النتائج العسكرية لحركاتهم الحربية، مع مقارنتها بالوسائل التي كانت بين أيديهم، وإكمالهم نقائص هذه الوسائل بدهائهم وحسن تدبيرهم وقوة عزائمهم؛ يعجبون من إقدام عمرو بن العاص على اقتحام الحدود المصرية على رأس حملة متواضعة في عددها واستعدادها الحربي . ولو

أن عمراً لم يسبق له ارتياد مصر والتغلغل في عاصمتها يومئذ وهي مدينة الإسكندرية، لكان هنالك مجال للظن بأنه غامر في هذه الحملة جزافاً وبلا حساب ؛ أما وإنه يعرف مصر في عمرانها وتعداد سكانها وطباعهم، وقد حارب في سوريا وفلسطين جيوش الدولة التي كانت تحتل مصر أيضاً بجيوشها، فمن غير المعقول أن يكون مدفوعاً إلى هذه المغامرة العجيبة عن قلة تقدير للمسؤوليات الحربية، وعن استخفاف بفنون القتال وأعبائه، فهو جِدّ خبير باستعداد أعدائه الحربي، وبأساليبهم العسكرية، وأنظمتهم في التعبئة هجوماً ودفاعاً، ويعلم أن لديهم من قادة الحرب كل صعب المراس، متمرن على الكر والفر، معتمد على المعاقل والقلاع في الحصار والمطاولة، فكانت هذه الحملة بمقدماتها ونتائجها أشبه بالحلم .

وأيضاً تجلت عبقرية خالد بن الوليد العسكرية في أروع صورها، عندما عبر بجيشه صحراء السماوة الملتهبة بين العراق والشام من أقصر الطرق وأكثرها وعورة وخطورة، ليفاجئ المسلمين والروم، ليكون بين ظهرانيهم في أسبوع، بعد أن عبر البادية التي لا ماء فيها ولا كلأ.ثم وقف جيش خالد بن الوليد؛ الذي لا يكاد يبلغ الأربعين ألفاً؛ أمام ربع مليون جندي روماني؛ مجهزين بأقوى الأسلحة وأمضاها؛ وبخبرة طويلة في فنون القتال في اليرموك؛ تلك المعركة الفاصلة؛ التي جعلت هرقل يبكي ويهتف عندما سمع نهايتها : وداعاً سوريا .. وداعاً لا لقاء بعده .

ولم تقم للروم بعدها قائمة.

وقد كانت كل هذه التحركات والفتوحات، تنم عن خبرة طويلة اكتسبها الصحابة طوال حياتهم الحافلة المفعمة بأعظم الخبرات .

وكانت القاعدة التي سار عليها الرسول صلوات الله وسلامه عليه في نشر الدعوة هي قوله تعالى :" ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين" [١].

وفي كل المغازي والحروب التي وقعت في بدايات الإسلام، لم يحارب المسلمون قوماً أو أمة أو شعباً ؛ إنما حاربوا القوى التي كانت تحول دون وصول الإسلام إلى الناس . فقد حارب الرسول ﷺ والصحابة معه أئمة الكفر في مكة ولم يحاربوا أهل مكة ، لذلك عندما استسلم رؤساء المكيين دخلت قوات المسلمين مكة دون حرب، وعندما نادى منادي الإسلام بأن من دخل الحرم فهو آمن، ومن دخل بيته فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، لم يُطْلَبْ من أَحَدٍ من المشركين أن يدخل في الإسلام؛ بل قال الرسول ﷺ لأهل مكة : "اذهبوا فأنتم الطلقاء"[٢] فانفتحت بذلك قلوب من بقي على الشرك منهم للإسلام فأسلموا .

وكذلك الأمر مع بقية البلاد التي فتحها المسلمون : كانت الحرب على الرؤساء الذين كانوا يحولون بين شعوبهم ودخول الإسلام، فلم يحارب المسلمون أهل الشام، أو أهل العراق، أو أهل

---

( ١ ) سورة النحل : آية ١٢٥ .

( ٢ ) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١١٨/٩) – حديث ١٨٠٥٥ بإسناد حسن.

مصر، وإنما حاربوا الروم والفرس الذين كانوا يستعمرون هذه الشعوب لمصالحهم، فلما قضى المسلمون على تلك القوى تركوا الشعوب لتختار دون إكراه بين الإسلام والكفر .

وما كان ذلك عن عدم حرص من المسلمين على نشر الإسلام، وإنما كان سيراً على أسلوب الدعوة في عهدها الأول : أسلوب عرض الدين على الناس، وتركهم بعد ذلك أحراراً إلى أن يهدي الله منهم من يشاء .

ومن غريب ما حدث في بلاد مثل مصر والأندلس ؛ أن كان هذا المسلك أدعى إلى دخول الناس في الإسلام، لأنهم تعودوا ممن يتغلب على بلادهم أن يكون شديد الحرص على إدخالهم في دينه، وفي ذلك يقول الراهب القرطبي (يولوج): " فكان من مكر العرب أن تظاهروا بأنهم لا يهتمون بدخول الناس في الإسلام فتطلعت نفوس الناس إلى ذلك الإسلام يتعرفون عليهم، لعلهم يعرفون السبب في اختصاص العرب أنفسهم به، وضنهم به على غيرهم، فما زالوا يفعلون ذلك ويسألون عن الإسلام ويستفسرون حتى وجدوا أنفسهم مسلمين دون أن يدروا" . ولقد قال الراهب القبطي يوحنا النقبوس شيئاً من ذلك، وكان متأسفاً لأن العرب لم يلجئوا إلى القوة في فرض الإسلام، إذ لو فعلوا ذلك لزاد تمسك الأقباط بعقيدتهم على مذهب العناد وإباء كل ما يفرض بالقوة [١] .

---

( ١ ) الإسلام الفاتح لحسين مؤنس : ص ٢١ _ ٢٢، بتصرف، و لايصح اتهام العرب هنا بالمكر و إنما كان دخولهم عن اقتناع و سؤالهم عن ذكاء، و الله أعلم.

ومن هنا كان هذا البحث في العوامل والصفات والطباع في الشعوب التي لعبت الدور الأساس في نشر الإسلام .

ونحمد الله أن كان هذا الموضوع " طبائع أهل مكة " يقدم إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة بمناسبة اختيار مكة المكرمة أول مدينة إسلامية عاصمة الثقافة الإسلامية عام ١٤٢٦ هـ ، ولا يفوتنا أن نشكر جامعة أم القرى على تنظيمها لهذه الندوة والتي نرجو لها التوفيق والنجاح .

**خطة البحث**

وتتضمن المباحث التالية :

المبحث الأول : أهمية الموضوع وفوائده .

المبحث الثاني : ماهية الطباع لغة واصطلاحاً .

المبحث الثالث : أثر فقه الطبائع في إنجاح الدعوة إلى الله .

المبحث الرابع : أسباب اختيار جزيرة العرب لتكون منطلق الدعوة الإسلامية

المبحث الخامس : تعريف عام بقريش

المبحث السادس : مناصب قريش

المبحث السابع : تجارة قريش

المبحث الثامن : حضارة قريش

المبحث التاسع : إمامة قريش

المبحث العاشر : طبائع قريش

## المبحث الأول

## أهمية الموضوع وفوائده

قد يسأل سائل قائلاً: ما أهمية دراسة طبائع قريش وأثرها في إنجاح الدعوة إلى الله .

وقد يبدو هذا السؤال لأول وهلة في مكانه، ولكن بعد التأمل – وبخاصة عند دراسة وتفحص السنة النبوية – نجدها أولت سلوك الإنسان وطبيعته وبناءه بمواصفات معينة حسب ما يريد الدين من أبنائه ومعتنقيه اهتماماً كبيراً، باعتباره خليفة الله في الأرض.

ولا يتم بناء الإنسان ونشر الإسلام إلا بناءاً على علمٍ بطبيعة هذا الإنسان، وقابليته واستعداداته، وأهدافه، وطرق إرشاده، ليكون قادراً على تحقيق الخلافة.

وبما أن الإنسان هو موضوع الداعي إلى الله، وهدف الداعي إلى الله تقويم الإنسان وفق منهج الله، فإن موقف الداعي من طبائع المدعو ؛ كموقف الصانع من طبيعة المعدن الذي يريد أن يصنع منه ما يريد صناعته وتشكيله ؛ والداعي بقدر ما يكون ماهراً في معرفة طبيعة الإنسان الذي يريد دعوته ؛ بقدر ما يكون ناجحاً في دعوته .

ولذلك لم يكن مصادفة أن يكون أول خليفة للمسلمين أبو بكر الصديق محارب المرتدين أعلم الناس بالأنساب، ثم يأتي أبو الجهم بن حذيفة العدوي[1]، وجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد

---

(١) قيل :اسمه عبيد وهو من مسلمة الفتح، وكان ممن بنى البيت في الجاهلية والإسلام . سير أعلام النبلاء للذهبي : ٢ /٥٥٦.

مناف[١] الذي أخذ علم النسب عن أبي بكر الصديق من أعلم الناس بالأنساب بعد الصدِّيق رضي الله عنهم .

كما كان عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم علماء به أيضاً .

وقد أمر رسول الله صلي الله عليه وسلم حسان بن ثابت أن يأخذ ما يحتاج إليه من علم نسب قريش عن أبي بكر الصديق [٢]، وروي أن من أسباب ارتضاء الصحابة خلافة أبي بكر الصديق كونه أنسب العرب، وهذا يعني أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب وبطونها، وتاريخ كل قبيلة، وسابق أيامها، وأخلاقها كالشجاعة، والجبن ، والأمانة، والخيانة، ومكانها من الضعف والقوة ، والغنى والفقر .

وما كان إقدامه – مع ما عرف به من اللين وسهولة الخلق – على قتال أهل الردة إلا لهذا العلم الذي كان به على بصيرة، فلم يَهَبْ، ولم حتى قال أبو بكر الصديق :والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه [٣].

ولولا معرفة الصحابة : بأخلاق، ولغات، وطبائع أهل البلاد المفتوحة، لما أقدموا على الفتوحات، ومحاربة الأمم ؛ فانتصروا عليهم بمعرفتهم بهم ؛ لا بجهلهم بأحوالهم وطباعهم، ويعرف ذلك من دَرَسَ

( ١ ) كان من الطلقاء الذين حَسُنَ إسلامهم،وكان يقول : "أخذت النسب من أبي بكر الصديق ". سير أعلام النبلاء :٣ /٩٥ .

( ٢ ) جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ص ٢ .

( ٣ ) صحيح البخاري – حديث ٦٨٥٥ و صحيح مسلم – حديث ٢٠

ما حُفِظَ من : آثارهم، وكتبهم التي كانوا يتراسلون بها، ومحاوراتهم، ولذلك عقد الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الأحكام باباً في ترجمة الحكام، وأخرج فيه حديث زيد بن ثابت : " أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود -يقول زيد رضي الله عنه- حتى كتبت للنبي ﷺ كتبه وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه " .(١)

وقد ذكر الحافظ في الفتح أن الرسول ﷺ أعجب بزيد بن ثابت عندما قدم المدينة، وقيل له : هذا غلام من بني النجار قد قرأ فيما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فاستقرأني فقرأت " ق " فقال لي :" تَعَلَّمْ كتاب يهود فإني ما آمن يهود على كتابي، فتعلمته في نصف شهر، حتى كتبت له إلى يهود، وأقرأ له إذا كتبوا إليه، فما مرَّ بي سوى خمس عشرة ليلة حتى تعلمته ".(٢)

وورد أيضاً أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم السريانية، فتعلمها في سبعة عشر يوماً .(٣)

وحرص الرسول ﷺ أيضاً على إرسال الرسل إلى ملوك وأمراء زمانه، وكان السفراء صفوة الدعاة إلى الله من الصحابة، من أمثال جعفر بن أبي طالب، الذي كان أول سفير في الإسلام، وأسلم على يديه النجاشي الأول، وعمرو بن أمية الضَّمْري، الذي أرسله الرسول ﷺ إلى النجاشي الثاني فأسلم على يديه، و دِحْيَة بن خليفة الكَلْبي الذي أرسله الرسول ﷺ إلى هِرَقْلَ قيصر الروم فصرفه بالحسنى، وعبد الله بن حذافة السهمي الذي أرسله الرسول ﷺ إلى كسرى

(١) صحيح البخاري – حديث ٤٠

(٢) صحيح البخاري (١٨٧/١) معلقا و وصله الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٣٠٦/٥)– حديث ٧١٩٥

(٣) صحيح ابن حبان (٨٤/١٦) – حديث ٧١٣٦.

أبرويز هرمز ملك الفرس، فمزق الكتاب النبوي .وبلغ عدد سفراء النبي ﷺ خمسة عشر سفيراً .

وإذا أردنا أن نعبر بدقة أكثر حول انتشار الإسلام بالسفارات النبوية، فلا بد أن نذكر أنه انتشر انتشاراً واسعاً في تسعة أقطار هي: اليمامة، وعُمَان، والبحرين،و مصر، و الشام، واليمن في أربع مناطق شاسعة منها، وحضرموت .

وكان انتشاره محدوداً في الحبشة ؛ لأن إسلام النجاشي لم يؤدِّ بالضرورة إلى إسلام شعبه .(١)

وصرف هرقل قيصر الروم، والمقوقس ملك مصر السفير النبوي بالحسنى، ومعنى ذلك أن أربعة من الملوك بَقُوا على دينهم ولم يسلموا ؛ إلاَّ أنَّ ملكين منهم صرفا سفيري النبي ﷺ بالعنف، وملكين صرفا سفيري النبي صلى الله عليه وسلم بالحسنى .

وقد أسلم الملوك الآخرون، وأسلم مع قسم منهم كثير من أتباعهم ، أي أن المسلمين أصبحوا الأكثرية في قسم من تلك الأقطار، في حين بقي المسلمون أقلية في القسم الباقي من تلك الأقطار .

وكان من عوامل هذا النجاح الباهر المتميز اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب للعمل المناسب، فقد كان اختيار السفراء النبويين موفقاً حقاً، وكانوا عند حسن الظن بهم، لهم سمات أهَّلَتْهم

(١) انظر سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، ص : ١٥–١٨.

لتحمل أعباء واجباتهم الثقيلة الصعبة بكفاءة واقتدار في أدق الظروف والأحوال، وكان من أهم تلك السمات معرفتهم بطباع وعادات ولغات الأقوام الذين أرسلوا إليهم .

ومن فوائد هذه الدراسة أيضاً أنها تظهر لنا أهمية التعامل مع كل شعب على حدة حسب اتجاهاته وأهوائه، فالتفاوت في خطاب الشعوب يختلف من شعب لآخر، ويظهر ذلك بوضوح عندما أرسل الرسول ﷺ إلى اليمن معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال له :" إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب " [1] فهذا الحديث تعليم لنا بأنَّ على الداعي إلى الله أن يعرف القوم الذين سيقدم عليهم، وكذلك اختيار الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل لكونه على دراية بأهل الكتاب خصوصاً محاوراته ليهود المدينة .

ولذلك نقول إن الدعوة إلى الله علم وفن، يحتاج لمن يتصدى لها أن يتسلح بسلاح العلم بلغات وأخلاق وطباع الشعوب التي يذهب لدعوتها إلى الله، فالذي يذهب إلى الصين مثلاً يحتاج لمعرفة اللغة الصينية أولاً، وعادات وطباع أهل الصين ثانياً، وتاريخ وحضارة الصين ثالثاً، فلا يكفي مجرد الحماس للدعوة.

والقرآن الكريم يقول :﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾، [2] والحكمة كما

(١) صحيح البخاري – حديث ١٣٠٨و صحيح مسلم – حديث ١٩ .

(٢) سورة النحل : آية ١٢٥.

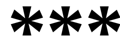
يقول الراغب الأصفهاني هي : "إصابة الحق بالعلم والعقل" (١)

المبحث الثاني : ماهية الطباع لغة واصطلاحاً .

ويشتمل على المطالب التالية :

–المطلب الأول : ماهية الطباع لغة .

–المطلب الثاني : الطبع في الاصطلاح .



## المبحث الثاني

## ماهية الطباع لغة واصطلاحاً

### المطلب الأول : ماهية الطباع لغة

الطاء والباء والعين أصل صحيح، وهو مَثَل على نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها، يقال : طبعت على الشيء طابعاً، ثم يقال على هذا طَبْعُ الإنسان وسجيته، ومن ذلك طَبَعَ اللّهُ على قلب الكافر، كأنه ختم عليه حتى لا يصل إليه هدىً ولا نور ؛ فلا يوفق لخير . ومن ذلك أيضاً طَبْعُ السيف والدرهم، وذلك إذا ضربه حتى يكمله .

والطَّابَعُ : الخاتم يختم به . والطَّابِعُ : الذي يختم.(٢) والرَّين والختم والطَّبْع للكفار.(٣)

والطَّبْعُ والطَّبيعة : الخليقة والسجية التي جُبِل عليها الإنسان،

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب : ص ٢٤٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة : ٣ / ٤٣٨ .

(٣) الكليات : ٦٧١ .

ويجمع طَبْعُ الإنسان طِبَاعاً على مِثال .[(١)] وتجمع الطبيعة على طبائع.[(٢)]

وحقيقة الطَّبع: أن تصور الشيء بصورة ما ، كطبع السكة، وطبع الدراهم، وهو أعم من الختم، وأخص من النَّقْش، وهو نقش النفس بصورة ما؛ إما من حيث الخلقة ،وإما من حيث العادة، وهو فيما ينقش به من حيث الخلقة أغلب، ولهذا قيل :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطِّبَاعُ على النَّاقل[(٣)]

## المطلب الثاني : الطبع في الاصطلاح

الجِبِلَّة التي خُلِقَ عليها الإنسان .[(٤)] تقول : جَبَلَه الله على كذا، إشارة إلى ما رُكِّب فيه من الطَّبْع الذي يأبى على النَّاقِل نقله [(٥)] وفي الحديث : " كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب " ،[(٦)] والرسول ﷺ يقول : " كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجِّسانه ".[(٧)]

وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن الطفل يولد مزوداً بصفات جسمية وعقلية وخلقية يرثها من أبويه أو من سلالته، لكن

---

(١) لسان العرب : ٨ / ٢٣٢ .

(٢) المعجم الوسيط :٢ /٥٥٦ .

(٣) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه شرح البرقوقي ٣ / ١٥٣ ، ومجمع البلاغة : ١ ٢٦٣ .

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف : ص : ٤٧٩ .

(٥) مفردات ألفاظ القرآن : ص : ١٨٥ .

(٦) الحديث أخرجه القضاعي في مسند الشهاب : ١ /٣٤٥، حديث ٥٩١، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ٩ /١٨٤، حديث ٨٩٠٩ .

(٧) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين ، ٢٤٥/٣، حديث ١٣٥٨.

معظمها ينتقل بالدرجة الأولى من الأبوين –الأب والأم –إلى الابن، وفي الدرجة الثانية ما ينتقل من الأجداد، ثم آباء الأجداد، وهكذا .

وقد دلت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على دور الوراثة في تكوين الأخلاق والطباع ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً ﴾ .[1] وروي عن النبي ﷺ : " إياكم وخضراء الدِّمن "،[2] ومعناه أنه كره نكاح الفاسدة لأن أعراق السوء تنزع أولادها، وتفسير حقيقته : أن النبات ينبت على البعر في الموضع الخبيث، فيكون ظاهره حسناً وباطنه قبيحاً فاسداً ؛ فالدِّمن جمع دِمنة وهي البعر .

وقال الرسول ﷺ : " تخيروا لنطفكم فأنكحوا الأَكْفاء وأنكحوا إليهم " ،[3] وقال عمر بن الخطاب : لأمنعن تزوج ذوات الأحساب إلا من الأكفاء [4]

ودلت الأبحاث الجنائية التي تقدمت كثيراً في بلاد العالم، ومنها أمريكا على أنَّ ستة وستين في المئة من المجرمين كانوا ينتمون إلى أُسَر متهمة بالإجرام، فطفل الداعر يميل إلى الدعارة، وطفل المجرم يميل إلى الإجرام، حتى وإن لم يأخذ عن والديه بالتقليد؛

(١) سورة نوح آية _ ٢٦، ٢٧ _ .

(٢) الحديث أخرجه القضاعي في مسند الشهاب : ٢ /٩٦، حديث ٩٥٧ ، و في إسناده ضعف

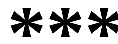
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك : ٢ / ١٧٦، حديث ٢٦٨٧، وابن ماجه في سننه:١ /٦٣٣، حديث ١٩٦٨، وحسنه الألباني .

(٤) أخرجه الدار قطني في سننه : ٣ / ٢٩٨، حديث ١٩٥، ومداره على أناس ضعفاء، وهو حسن، انظر التلخيص الحبير : ٣ / ٣٠٤ .

نجد لديه وفي نفسه ميلاً للإجرام كالقتل والضرب.[(١)] ولذلك لا نعجب من اهتمام الرسول ﷺ وحرصه على تعليم أمته التدقيق عند اختيار المرضعة، لأن الطفل يتأثر بلبن المرضعة ؛ إذا كانت حمقاء أو بلهاء، ولهذا روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : " لا تسترضعوا الورهاء ".

قال الأصمعي : سمعت يونس بن حبيب يقول: الورهاء الحمقاء.[(٢)]

وقد نص الفقهاء على اجتناب الحمقاء لأنه ربما تعدَّى حمقها إلى ولدها . وقد قيل : اجتنبوا الحمقاء، فإن ولدها ضياع، وصحبتها بلاء . ويختار الحسيبة ليكون ولدها نجيباً، فإنه ربما أشبه أهلها ونزع إليهم . وكان يقال إذا أردت أن تتزوج امرأة فانظر إلى أبيها وأخيها.[(٣)]



(١) التربية الإسلامية والطبيعة الإنسانية: ص : ١٤٠ _ بتصرف _ .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير : ١ / ١٠٠، والأوسط : ١ / ٧٨، بإسناد فيه ضعف.

(٣) المغني : ٧ / ٨٣ .

## المبحث الثالث

## أثر فقه طبائع البشر في إنجاح الدعوة إلى الله

خلق اللّه الإنسان من تراب، وجعل اللّه هذا الخلق من آياته العظام، قال اللّه تعالى : " ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون " [١]، وقيل: إن آدم أبا البشر سمِّي بذلك لكون جسده من أديم الأرض، وقيل : سمِّي بذلك لكونه من عناصر مختلفة وقوى مختلفة، كما ذكر سبحانه و تعالى : " من نطفة أمشاج نبتليه " [٢] .

وقد جاء في السنة النبوية بإسناد صحيح عن أبي موسى قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: " إن اللّه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحَزْن، والخبيث والطيب " [٣] .

وفي هذا الحديث دلالة على أنَّ الناس تتفاوت في الطباع، والأخلاق، والألوان، وهذه من البدهيات التي يعرفها كل أحد ؛ كما تتفاوت حظوظهم من: القوة والضعف، والطول والقصر، والذكاء والغباء، و الشجاعة والجبن، والغضب والرضا.

وورد عن أبي سعيد الخدري قال : " صلى بنا رسول اللّه ﷺ يوماً صلاة العصر بنهار، ثم قام خطيباً ،فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، وكان فيما قال : " ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى، فمنهم : من يولد مؤمناً

---

( ١ ) سورة الروم : آية : ٢٠ .

( ٢ ) سورة الإنسان : آية :٢ .

( ٣ ) أخرجه أحمد في مسنده : ٤ / ٤٠٠، ٤٠٦ . وابن حبان في صحيحه : ١٤ / ٢٩، حديث ٦١٦٠ .

ويحيا مؤمناً، ويموت مؤمناً، ومنهم : من يولد كافراً، ويحيا كافراً، ويموت كافراً، ومنهم: من يولد مؤمناً، ويحيا مؤمناً، ويموت كافراً، ومنهم : من يولد كافراً، ويحيا كافراً، ويموت مؤمناً، ألا وإن منهم : البطيء الغضب، سريع الفيء، ومنهم : سريع الغضب سريع الفيء، فتلك بتلك، ألا وإن منهم : سريع الغضب، بطيء الفيء، ألا وخيرهم : بطيء الغضب سريع الفيء، ألا وشرهم : سريع الغضب بطيء الفيء، ألا وإن منهم: حسن القضاء حسن الطلب، ومنهم : سيئ القضاء حسن الطلب، ومنهم حسن القضاء سيئ الطلب، فتلك بتلك، ألا وإن منهم السيئ القضاء السيئ الطلب، ألا وخيرهم حسن القضاء الحسن الطلب، ألا وشرهم سيئ القضاء سيئ الطلب" [١] .

وكثيراً ما نجد بعض الناس مفطورين على سرعة الغضب في حين أننا نجد آخرين مفطورين على الحلم وبُطء الغضب والأناة .

والناس لتفاوتهم في الطِّباع أشبهوا المعادن التي في باطن الأرض، ولذلك نجد الرسول ﷺ يشبه الناس بالمعادن في حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : " تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية ، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ، ويأتي هؤلاء بوجه" [٢].

وفي رواية : " الناس معادن كمعادن الذهب والفضة "[٣] وفي

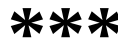
---

( ١ ) الجامع الصحيح للترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بما هو كائن، حديث ٢١٩١، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وأخرجه أحمد في مسنده : ٣ /١٩ .

( ٢ ) صحيح البخاري – حديث ٣٣٥٣ و صحيح مسلم–حديث ٢٣٧٨

( ٣ ) متفق عليه، تقدم تخريجه .

هـذه الروايـات دليـل علـى وجـود الفـروق والتفـاوت في الطبـاع، والأخـلاق بـين البـشر، وإثبـات مـن الرسـول ﷺ أن خيـار النـاس في التكـوين الفطري الخلقي الطبعي هم أكرمهم خلقاً.



## المبحث الرابع

## أسباب اختيار جزيرة العرب لتكون منطلق الدعوة الإسلامية

قبـل الحـديث عـن طبـائع قـريش، سـنحاول تلمـس الحكمـة الإلهيـة الـتي اقتـضت أن تكـون الجزيـرة العربيـة هـي المنطلـق للـدعوة الإسلامية دون غيرها من البلاد .

ولـتلمس الحكمـة ينبغـي علينـا أن نعـرض بإيجـاز مـا كانـت عليـه الأمم التي تعيش حول الجزيرة العربية قبل بزوغ فجر الإسلام .

كـان يتربـع علـى عـرش العـالم القـديم في ذلـك الوقـت دولتـان تتـشاطران العـالم المتحـضر في ذلـك الوقـت همـا :فـارس، والـروم، ويـأتي بعدهما اليونان والهند .

أمـا فـارس فقـد كانـت حقـلاً لوسـاوس دينيـة فلـسفية متـصارعة مختلفـة ؛ كـان فيهـا الزرادشـتية الـتي اعتنقهـا ذوو الـسلطان الحـاكمون، وكـان مـن فلـسفتها تفـضيل زواج الرجـل بأمـه،أو ابنتـه، أو أختـه، حتـى إن (يزدجـرد) الثـاني الـذي حكـم في أواسـط القـرن الخـامس المـيلادي تـزوج بابنتـه، هـذا بالإضـافة إلى انحرافـات خلقيـة مـشينة لا مجال لذكرها هنا .

وكان فيها المزدكية التي كانت قائمة على فلسفة أخرى هي حِلّ النساء، وإباحة الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ .

وأما الرومان فقد كانت تسيطر عليها الروح الاستعمارية، وكانت منهمكة في خلافات دينية بينها من جهة، وبين نصارى الشام ومصر من جهة أخرى، وكانت دولة الرومان تعتمد على هيمنتها العسكرية، وطموحها الاستعماري من أجل تطوير المسيحية والتلاعب بها حسب ماتوحي به مطامعها وطموحاتها، وكانت تسودها حياة التبذل، والانحطاط، والظلم الاقتصادي من جراء كثرة الإتاوات، ومضاعفة الضرائب .

وأما اليونان فقد كانت غارقة في خرافاتها وأساطيرها الكلامية، التي منيت بها دون أن ترقى إلى ثمرة أما الهند، فقد كانت في أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً [١].

وأما الجزيرة العربية فقد كانت بعيدة عن مظاهر هذه الاضطرابات كلها، فلم يكن لدى أهلها من الرفاهية، والمدنية الفارسية مايجعلهم يتفننون في خلق وسائل الانحلال وفلسفة مظاهر الإباحية، والانحطاط الخلقي، ووضعها في قوالب من الدين، ولم يكن لديهم من الطغيان العسكري الروماني ما يبسطون به أيديهم بالتسلط على أي رقعة من حولهم، ولم يؤتوا من ترف الفلسفة والجدل اليوناني ما يصبحون به فريسة للأساطير والخرافات، و لم ينحطوا انحطاط الهنود في مجتمعاتهم.

---

( ١ ) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ص ٢٨ .

**فقــد كانــت طبــائعهم أشــبه مــا تكــون بالمــادة الخــام الــتي لم تتـصهر بعـد في أي بوتقـة محوّلـة، فكانـت تـتراءى فيهـا الفطـرة الإنـسانية الـسليمة، والنزعــة القويــة إلى الاتجاهــات الإنــسانية الحميــدة كالوفــاء والنجــدة والكــرم والإبــاء والعفــة، إلا أنــه كانــت تعــوزهم المعرفــة الــتي**
تكـشف لهـم الطريـق إلى كـل ذلـك، إذ كـانوا يعيـشون في ظلمـة مـن الجهالـة البـسيطة، والحالة الفطريـة الأولى، فكـان يغلـب علـيهم –بـسبب ذلـك –أن يـضلوا الطريـق إلى تلـك القـيم الإنـسانية، فيقتلـوا الأولاد بـدافع الـشرف والعفـة، ويتلفـوا الأمـوال الـضرورية بـدافع الكـرم، ويـثيروا بيـنهم المعارك بدافع الإباء والنجدة.

وهــذه الحالــة هــي الــتي عــبر الله عــز وجــل عنهــا بالــضلال حينمــا وصفهم بقوله :

﴿ وإن كنــتم مــن قبلــه لمــن الــضالين ﴾.(١) وهــي صــفة –إذا مــا نـسبت إلى حـال الأمـم الأخـرى إذ ذاك–تـدل علـى الاعتـذار لهـم أكثـر مـن أن تـدل علـى تـسفيههم، أو تعـييرهم بهـا . ذلـك أن الأمـم الأخـرى كانـت تـستهدي لانحرافاتهــا العظيمــة بمــشاعل الحــضارة، والثقافة، والمدنيــة، فكانـت تتقلـب في حمـأة الفـساد عـن تبـصر، وتخطـيط، وفكـر .ثـم إن الجزيـرة العربيـة تقـع –بالنـسبة لرقعتهـا الجغرافيـة –في نقطـة الوسـط بـين هذه الأمم التي كانت تموج من حولها .(٢)

(١) سورة البقرة : آية ١٩٨ .

(٢) فقه السيرة للبوطي : ص ١٨ _ ١٩ .

وكما يقول الأستاذ محمد المبارك فإن الجزيرة العربية : "تقف في الوسط التام بين حضارتين جانحتين : إحداهما حضارة الغرب المادية التي قدمت عن الإنسان صورة بتراء لا تقع حتى على جانب جزئي من الحقيقة، وأخراهما الحضارة الروحية الخيالية في أقصى الشرق كتلك التي كانت تعيش في الهند والصين وما حولهما"(١) .

فإذا تصورنا حالة العرب في جزيرتهم قبل الإسلام، وحالة الأمم المختلفة الأخرى المحيطة بهم سهل علينا أن نستجلي الحكمة الإلهية التي اقتضت أن تتشرف الجزيرة العربية دون غيرها بمولده وبعثته ﷺ، وأن يكون العرب هم الطليعة الأولى التي تحمل إلى العالم مشعل الدعوة إلى الدين الإسلامي الذي تَعبَّدَ الله به الجنس البشري كله من أقصى العالم إلى أقصاه .

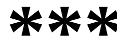
وهنالك حكم أخرى لا تخفى على الباحث نجملها فيما يلي :

١ - **من المعلوم أن الله عز وجل قد جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمناً**، وجعله أول بيت وضع للناس للعبادة، وإقامة الشعائر الدينية، وحقق في ذلك الوادي دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام . ومن لوازم هذا كله ومتمماته أن تكون هذه البقعة المباركة نفسها مهداً للدعوة الإسلامية التي هي ملة أبينا إبراهيم، وأن تكون بعثة خاتم الأنبياء ومولده فيها، كيف لا، وهو من نسل إبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

(١) الأمة العربية في معركة تحقيق الذات لمحمد المبارك : ص ١٤٧ .

٢ – **البقعة الجغرافية للجزيرة العربية ترشحها للقيام بعبء مثل** هذه الدعوة، بسبب أنها تقع في وسط الأمم المختلفة التي من حولها، يقول تعالى جل شأنه : (و كذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى و من حولها) سورة الشورى :

٣ –**اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون اللغة العربية هي لغة الدعوة الإسلامية** وأن تكون هي المباشرة الأولى لترجمة كلام الله عز وجل، وإبلاغه إيانا لما تمتاز به من الخصائص التي يعز وجودها في اللغات الأخرى .[1]



## المبحث الخامس

## تعريف عام بقريش

قريش هي قبيلة الرسول ﷺ التي ينتسب إليها، وإنما سميت قريش بهذا الاسم لتجمعهم على قصي بن كلاب، وهي بطنان :قريش البطاح، وقريش الظواهر .

وقد قيل أيضاً : إنما سميت قريش قريشاً لأنها كانت تجاراً تكسب، وتتجر، وتتحرش فشبهت بحوت في البحر .[2]

ونزلت قريش في مكة في القرن الرابع الميلادي، وكانت قبل ذلك متفرقة حول مكة، واستطاعت أن تتغلب على قبيلة خزاعة التي

(١) فقه السيرة : ص ١٩ ــ ٢٠، بتصرف .

(٢) الأنساب للسمعاني : ٤ /٤٨٥ .

كانت لها السيادة بها .

واستولى قصي بن كلاب، وهو الجد الرابع لرسول الله ﷺ على أمر مكة والبيت الحرام في القرن الخامس بعد أن وحَّدَها ونظَّم شؤون مكة، ووضع أساس سيادتها الدينية والسياسية، وقد كان الشرف والرئاسة في قريش بالجاهلية في بني قصي، لا ينازعون ولا يفخر عليهم فاخر، وكانت لقريش ست مآثر، كلها لبني قصي دون سائر قريش، وهي : الحجابة، والسقاية، والرِّفادة، والندوة، واللواء، والرئاسة . فلما هلك حرب بن أمية –وكان رئيساً بعد المطلب –تفرقت الرئاسة في بني عبد مناف .

وأما قريش البطاح : فتضم بطون : أمية، ونوفل، وزهرة، ومخزوم، وأسد، وتسكن قلب المدينة حول بيت الله الحرام .

وأما قريش الظواهر: فقد كانوا خليطاً من العوام والأحابيش والموالي، ويسكنون ضواحي مكة وشعابها وتلالها .

وكانت قريش البطاح تؤلف أرستوقراطية مكة، وتهيمن على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أواسط بلاد العرب وغربها . وكانت لهم تجارة واسعة مع البلاد المجاورة ؛كبلاد الشام واليمن ؛ استدعت عقد اتفاقات مع رؤسائها في بلاد الشام واليمن .

وقد اكتسبت قريش بفضل تعظيم العرب للكعبة ؛ فوائد اقتصادية، ونفوذاً روحياً، وسياسياً بين القبائل .واشتهرت بفصاحتها، فلهجتها هي التي سادت في أغلب أنحاء الجزيرة العربية ونزل القرآن الكريم بلهجتها .وقد تمكن القرشيون من السيطرة على مجرى

التاريخ قروناً عدة [١].

ولم تعرف القبائل العربية في بلاد العرب الرئاسة المطلقة كما عرفتها قريش، وإنما كان في كل قبيلة نفر من " السادة " يعترف أفراد القبيلة لهم بسلطان أدبي، ولم تكن واجبات السيد أو حقوقه محددة .أما في مكة فقد أخذت السيادة معنىً حقيقياً ؛ وذلك بسبب الاستقرار، وانتظام أمور الجماعة، ووجود الكعبة، وضرورة وجود من يتولى شؤونها . ومن هنا كان تنافس القبائل وشيوخها على سدانة الكعبة ؛ حتى انتهت إلى قريش على يد سيدها قصي بن كلاب ثم حفيده عبد المطلب [٢].

***

## المبحث السادس

## مناصب قريش

كانت المناصب في قبيلة قريش خمسة عشر منصباً، وزعها القرشيون فيما بينهم بالعدل والقسطاس ليرضوا كل بطون قريش، وحتى لا يدب التنافس والتنافر بينها.

أما هذه المناصب فهي :

( ١ ) السِّدانة أو الحجابة : أي الإشراف على الكعبة .

( ٢ ) السِّقاية : أي توفير ماء زمزم للحجاج .

---

( ١ ) معجم أعلام القرآن الكريم : ص ١٧٨ _ ١٧٩ .

( ٢ ) تاريخ التمدن الإسلامي لجويدي : ١ / ٣٦ .

( ٣ ) الرِّفادة : أي توفير الطعام للحجاج .

( ٤ ) الرَّاية : ويحملها أحدهم .

( ٥ ) القيادة : أي إمارة الركب في القتال أو التجارة .

( ٦ ) الإشناف : أي الإشراف على الديات .

( ٧ ) القبة : أي الإشراف على المهمات الحربية .

( ٨ ) الأَعِنَّة : أي تولي شؤون الخيل وقت الحرب .

( ٩ ) النَّدوة : وهي دار الشورى يجتمع فيها كبار رجالات قريش ممن تجاوز عمرهم الأربعين للتشاور في مهام الأمور .

( ١٠ ) المشورة : وصاحبها يستشار في الأمور المهمة .

( ١١ ) الصفارة :وصاحبها حامل صفارة الحرب .

( ١٢ ) الأسيار :وهي الأزلام التي يستخيرونها .

( ١٣ ) الحَكومة : وهي الفصل بين الناس إذا اختلفوا .

( ١٤ ) الأموال المحجرة : وهي أموال كانوا يسمونها لآلهتهم .

( ١٥ ) العمارة : أي منع الكلام بصوت عال عند الكعبة .

تولى هذه المناصب أفذاذ من بطون قريش، أي : أن قريشاً كونت جمهورية تولاها أكفأ أبنائها ، وكانت السقاية والرفادة من أبرز المناصب، أما السقاية فتعني سقاية زمزم، فكان على عبد المطلب توفير الماء للحجاج ومزجه بالعسل أو التمر.

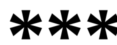
أمـا الرفـادة فهـي تـوفير الطعـام للحجـاج، وكانـت قـريش تتعـاون في سبيل ذلك .

وقـد تـولى عبـد المطلـب السقاية والرفـادة باعتبـاره مـن بـني عبـد منـاف، بينمـا تـولى أبنـاء عمومتـه بنـو عبـد الـدار الحجابـة واللـواء ودار الندوة .

وكـان عبـد المطلـب زعيمهـا الروحـي باعتبـاره زعـيم قـريش ومكـة . وكانـت هـذه الـدار هـي دار حكومـة مكـة . وتقـع في جنـوب غربـي الكعبـة، بناهـا قـصي سـنة ٤٤٠ م . وكـان وجـوه قـريش وفي مقدمتهم عبد المطلب يجتمعون فيها للتباحث فيما يهمهم من شؤون .

وكانـت هـذه الـدار هـي الـتي اجتمـع الوثنيـون فيهـا لتـدبير مـؤامرة قتل الرسول ﷺ ليلة هجرته إلى يثرب .

وأيـضاً كانـت هـذه الـدار مكـان انطـلاق قوافـل قـريش للتجـارة وعنـدها تنتهـي، وكـان أخطـر اجتمـاع في عهـد عبـد المطلـب هـو اجتمـاع القرشـيين حـين قـدم أبرهـة علـى رأس جـيش الأحبـاش لغـزو مكـة وهـدم الكعبة [١].



( ١ ) تاريخ الكعبة : ص ٤٤ – ٤٥ .

## المبحث السابع

## تجارة قريش

أصبحت تجارة قريش تعرف طريقها إلى كل مكان في العالم القديم، وازداد ثراء قريش في عصر عبد المطلب زيادة كبيرة، وأدى هذا الثراء إلى انتشار الحضارة في قريش وإلى انتشار الرخاء في مكة [١].

وأشار القرآن الكريم إلى رحلات قريش في سورة " لإيلاف قريش "، وعنونها البخاري في صحيحه بسورة قريش . والمعروف المشهور أن الذي سنَّ الإيلاف هو هاشم، وهو المروي عن ابن عباس، وذكر ابن العربي عن الهروي : أن أصحاب الإيلاف هاشم وإخوته الثلاثة الآخرون عبد شمس، والمطلب، ونوفل .

وأن كل واحد منهم أخذ حبلاً، أي عهداً من أحد الملوك الذين يمرون في تجارتهم على بلادهم، وهم ملك الشام، وملك الحبشة، وملك اليمن، وملك فارس .

فأخذ هاشم هذا من ملك الشام، وهو ملك الروم، وأخذ عبد شمس من نجاشي الحبشة، وأخذ المطلب من ملك اليمن، وأخذ نوفل من كسرى ملك فارس، فكانوا يجعلون جُعْلاً لرؤساء القبائل وسادات العشائر يسمى الإيلاف أيضاً، يعطونهم شيئاً من الربح، ويحملون إليهم متاعاً، ويسوقون إليهم إبلاً مع إبلهم ليكفوهم مؤونة الأسفار، وهم يكفون قريش دفع الأعداء، فاجتمع لهم بذلك أمن الطريق كله إلى اليمن وإلى الشام وكانوا يسمون المُجِيرين .

---

( ١ ) المجتمعات الإسلامية لشكري فيصل : ص ١٨ .

فتيسرت لهم الأسفار في بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها، ولاذ بهم أصحاب الحاجات يسافرون معهم، وأصحاب التجارات يحمِّلونهم سِلَعهم، وصارت مكة وسطاً تُجلب إليها السلع من جميع البلاد العربية فتوزع إلى طالبيها في بقية البلاد، فاستغنى أهل مكة بالتجارة إذ لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع، إذ كانوا بواد غير ذي زرع [١].

وكان الاشتغال بالتجارة يحتاج إلى الإلمام بالأحوال السياسية، والتجارية في العالم القديم ولذا اهتم القرشيون بدراسة العلاقات القائمة وقتذاك بين الفرس والروم، والأحباش واليمنيين والمشاكل التي تشوب هذه العلاقات .

وأصبحت تجارة قريش مدرسة أو جامعة ؛ عملت على تكوين أفراد ذوي خبرة وتجارب وعلم ؛ يصعب على المدارس أو الجامعات العادية تخريجهم فيها .

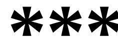
وكانت التجارة تقتضي الإلمام بجوانب الحساب التجاري، وكل ما يرتبط بالتجارة، من الدراية بالمكاييل، والموازين، والمقاييس العالمية، وما يتعلق بالنقد الأجنبي، والعملات الدولية، والعقود، والصكوك، وغير ذلك من الأساليب التجارية، ومستلزماتها الضرورية .

كما أصبحت جدة التي كانت تبعد عن مكة بنحو أربعين ميلاً ميناء قريش، وامتلك القرشيون عدداً كبيراً من السفن، كانوا

( ١ ) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور :٣٠ / ٥٥٩–٥٦٠ .

يعبرون بها البحر الأحمر إلى الحبشة برغم خطورة الملاحة في هذا البحر وقتذاك ؛ حيث كانت السفن لا تزال بدائية الصناعة .

وأصبح القرشيون وسطاء تجاريين بين إقليم البحر المتوسط المعروف بغَلّاته المتميزة المتوافرة في الشام، وفلسطين، وآسيا الصغرى، وبين ذلك الإقليم الموسمي في جنوب الجزيرة العربية، التي تشتهر بغَلّات كان العالم القديم يحتاج إليها، مثل البخور والتوابل [١].



## المبحث الثامن

## حضارة قريش

بلغت حضارة قريش في عهد عبد المطلب شأواً بعيداً في الحضارة لم تبلغه في أي عهد من عهودها قبل الإسلام . وإن كان قصي بن كلاب قد وضع بذور هذه الحضارة، فقد جنى حفيده عبد المطلب الثمار . ولذا لا عجب أن ارتفع شأنه، وعظم أمره . وبسبب قداسة مكة ؛ لكونها مركزاً للحياة التجارية، أَثْرَت وأثرى أهلها، وادخروا الأموال والمعادن النفيسة، وعرفوا ألواناً من الترف وتقلبوا في ألوان النعمة والرفاهية.

وروى الواقدي: أن العرب استخرجوا الذهب من مناجم سليم، وجلبوه إلى مكة، حيث صنعوا منه أنواعاً عديدة من الحلي، وادخروه سبائك ذهبية . وظهر من بين أهل مكة رجال حازوا ثروات

---

( ١ ) تاريخ الكعبة : ص ٥٠ – ٥١ .

كبيرة ؛ نتيجة اشتغالهم بالتجارة .وكانت المنازل في مكة تقدر بالذهب، وتراوح ثمن الدار ما بين مائتين وخمسمائة دينار .وامتلك المكيون الجياد الكريمة، وتفاخروا بعددها ونسبها . واشتهر المكيون بالكرم، والشهامة، والمروءة، وإكرام الضيوف، وبدا هذا الكرم واضحاً زمن الحج، فقد حرصوا على توفير وسائل الراحة للحجاج .

وكانت مكة مركز الحياة الدينية في الجزيرة العربية، فكان يقدم إليها العرب من كل مكان زمن الحج والمواسم العربية، فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم من بعض، ويتناشدون الأشعار، ويتحدثون بشرف أصلهم وكرم مجدهم، فتغرس كل هذه المصادر الاجتماعية والأدبية في نفوس أطفالهم المواهب النادرة، والقرائح الوقَّادة، والخصال الكريمة، وتَدْفع بهم إلى جليل الأعمال وأسمَى الغايات [١] .

واستفاد القرشيون من رحلاتهم إلى الدولتين : الرومانية والفارسية، بالاطلاع على معالم هاتين الدولتين، ونقلوا إلى العربية كثيراً من المصطلحات والكلمات الرومانية والفارسية . وأدَّى اطلاعهم على النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى نمو ثقافتهم، وزيادة معلوماتهم، ورقي أفكارهم . مما أتاح الفرصة لظهور شخصيات فريدة ؛ استطاعت أن تتولى أمور الدولة الإسلامية التي بزغت بظهور الإسلام .

---

( ١ ) تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن : ١ / ٦٦ .

لم يكن معظم العرب يهتمون بتعليم أطفالهم القراءة والكتابة، فلم يكن التعليم منتشراً في الجزيرة العربية في ذلك الحين؛ لانشغالهم بالبحث عن موارد الرزق عن التعليم، فقد كانت طبيعة بلاد العرب قاسية لا تجود بالخير العميم . ولكن الله عز وجل عوضهم عن ذلك بذاكرة قوية، وسعة أفق، وصبر وقوة احتمال، وخيال فياض .

ولكن قبيلة قريش كانت أكثر هذه القبائل اهتماماً بالتعليم، نتيجة الحضارة التي وصلت إليها، ونمو ثرائها، واحتكاكها بالدول الكبرى المتحضرة، إلى جانب حاجة القرشيين إلى التعليم ليقوموا بواجبهم التجاري .

ومَهَرَت قريش في عدة علوم :كعلم الأنواء، فعلموا مواعيد نزول الأمطار، وهبوب العواصف والرياح، كما أجادوا علم الأثر، وتتبعوا آثار الأقدام في الصحراء، وكانت تدلهم أحياناً على مسالك الصحراء ودروبها . كما برعوا في علم الأنساب، وقد كانت قريش تدرك منزلتها بين القبائل العربية، لذا حَفِظوا أنسابهم واهتموا بتسلسلها، وبرز من القرشيين نسَّابون ذاع صِيتهم بين العرب كأبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ولم يكن حب أبناء الأشراف وأهل الشرف في مكة للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التي كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم، بالإضافة إلى ازدياد عددهم على الأيام، لجودة غذائهم بالنسبة لغيرهم من القبائل، وعدم تعرضهم للمنازعات والحروب التي أنهكت قوى العرب في جاهليتهم [(١)].

---

(١) تاريخ الكعبة _ بتصرف _ ص : ٥٢ _ ٥٥ .

## المبحث التاسع

## إمامـــة قريــش

أخـرج البخـاري في صـحيحه عـن أبـي هريـرة أن الـنبي ﷺ قـال : " النــاس تبــع لقــريش في هــذا الــشأن، مــسلمهم تبــع لمــسلمهم، وكــافرهم تبــع لكــافرهم، والنـــاس معـــادن، خيـــارهم في الجاهليـــة خيـــارهم في الإســلام إذا فقهــوا، تجــدون مــن خــير النــاس أشــد النــاس كراهيــة لهــذا الــشأن حتــى يقــع فيــه " [١] . قــال ابــن حجــر في الفــتح : إن مقــصود الرســول ﷺ بقولــه : " النــاس تبــع لقــريش " إمــا بمعنــى الأمــر . ويــدل عليــه قولــه ﷺ في رواية أخرى : " قدموا قريشاً ولا تَقَدَّموها "[٢]

وقيــل : هــو خــبر علــى ظــاهره . وقولــه : " كــافرهم تبــع لكــافرهم " وقـــع مـــصداق ذلـــك ؛ لأن العـــرب كانـــت تعظـــم قريـــشاً في الجاهليـــة بــسكناها الحــرم، فلمــا بُعــث الــنبي ﷺ ودعــا إلى الله وقــف غالــب العــرب عــن اتباعــه، وقــالوا ننظــر مايــصنع قومــه، فلمــا فــتح الــنبي ﷺ مكــة، وأســلمت قــريش تبعــتهم العــرب، ودخلــوا في ديــن الله أفواجــاً، واســتمرت خلافــة النبــوة في قــريش، فــصدق أن كــافرهم تبعــاً لكــافرهم وصــار مسلمهم تبعاً لمسلمهم" [٣] .

---

( ١ ) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى "، ٦ /٥٢٥، حديث ٣٤٩٦ . وصخيخ مسلم، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش، ٣ / ١٤٥١، حديث ١٨١٨ .

( ٢ ) شعب الإيمان للبيهقي(٢٢٨/٢)– حديث ١٦٠٢ و السنن الواردة في الفتن لأبي عمرو الداني (٥٠٨/٢)– حديث ٢٠٦، مرسلا.

( ٣ ) فتح الباري : ٦ / ٥٢٦ .

وجاء عند مسلم عن جابر بن عبد الله قال النبي ﷺ : " الناس تبع لقريش في الخير والشر "[١] .

ومعناه هنا كما ذكر النووي :" في الخير والشر"، أي : في الإسلام والجاهلية، لأنهم كانوا في الجاهلية رؤساء العرب وأصحاب حرم الله، وأهل حج بيت الله، وكانت العرب تنظر إسلامهم، فلما أسلموا وفتحت مكة تبعهم الناس، وجاءت وفود العرب من كل جهة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وكذلك هم في الإسلام أصحاب الخلافة، والناس تبع لهم .

وهذا دليل ظاهر على أن الخلافة مختصة بقريش لا يجوز عقدها لأحد من غيرهم، وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة فكذلك بعدهم، ومن خالف فيه من أهل البدع، أو عرَّض بخلاف من غيرهم فهو محجوج بإجماع الصحابة والتابعين فمن بعدهم بالأحاديث الصحيحة .

قال القاضي[٢] : (اشتراط كونه قرشياً هو مذهب العلماء كافة)، قال:( وقد احتج به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على الأنصار يوم السقيفة فلم ينكره أحد). قال القاضي:( وقد عدها العلماء في مسائل الإجماع، ولم ينقل عن أحد من السلف فيها قول ولا فعل يخالف ما ذكرنا وكذلك من بعدهم في جميع الأعصار). قال: (ولا اعتداد بقول النَّظام [٣]ومن وافقه من الخوارج وأهل البدع أنه

---

( ١ ) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش، ٣ / ١٤٥١ حديث ١٨١٨ .

( ٢ ) المقصود به القاضي عياض اليحصبي المالكي .

( ٢ ) النظّام : هو إبراهيم بن سيَّار المعتزلي المتوفى سنة ٢٣١ هجرية .

يجوز كونه من غير قريش، ولا بسخافة ضرار بن عمرو[١] في قوله :

إن غيرالقرشي من النبط وغيرهم يُقدَّم على القرشي لهوان خلعه إن عرض منه أمر. وهذا الذي قاله من باطل القول وزخرفه مع ماهو عليه من مخالفة إجماع المسلمين) [٢].

ولقد أطلق الرسول ﷺ على الرؤساء الأربعة الذين تولوا شؤون المسلمين، بعد الرسول ﷺ اسم الخلفاء الراشدين لأنهم كانوا متصفين بالصفات التي يجب أن يتصف بها ولي أمر المسلمين، فقد أخرج الترمذي في جامعه عن العرباض بن سارية قال : " وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل : إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإنْ عَبْدٌ حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً . وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ " [٣] .

والخلفاء الأربعة من أسر قرشية مختلفة، ومتفاوتة في القدر والمكانة .

---

( ١ ) ضراربن عمرو : من رؤس المعتزلة، وشيخ الضرارية . قال ابن حنبل : أنكر الجنة والنار، وقال : اختلف فيهما : هل خلقتا بعد أم لا ؟ فوثب عليه أصحاب الحديث، وضربوه .

( ٢ ) شرح النووي على صحيح مسلم : ١٢ /٢٠٠ .

( ٣ ) الجامع الصحيح للترمذي ، كتاب العلم عن رسول الله، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، ٥ / ٤٤، حديث ٢٦٧٦، وقال : ( حديث حسن صحيح) .

فأولهم: أبو بكر من بني تيم، وثانيهم :عمر من بني عدي، وثالثهم: عثمان من بني أمية، ورابعهم: علي من بني هاشم رضوان الله عليهم . وكان كل منهم رئيساً للدولة طيلة حياته . ومدة حكمهم جميعاً ثلاثون سنة .

وأخرج الترمذي في جامعه عن سعيد بن جمهان قال : حدثني سفينة قال : قال : رسول الله ﷺ : " الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم مُلْك بعد ذلك".

ثم قال لي سفينة : ( أَمْسِك خلافة أبي بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان، ثم قال لي: أمسك خلافة علي قال : فوجدناها ثلاثين سنة . قال سعيد : فقلت له : إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم قال: كذبوا بنوا الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك) [(١)].

فكان من ذلك أن قامت تحت رايتهم دولة عظمى مثالية، لم يكد يسبق لها مثيل ولم يكد يقوم بعدها مثيل، من حيث أخلاق رؤسائها، وصفاتهم، والتزامهم، حدود القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ونهوضهم بعبء المهمة الكبرى بقوة وإخلاص، وبصيرة، وإحاطة، وحصافة، وحسن سياسة، ونشرهم الدين الإسلامي في منطقة شاسعة من الأقطار المجاورة لجزيرة العرب، وسيادة الأمن والنظام والحق والعدل والمساواة والحرية، والبر والرأفة والتعاون والتضامن، وكفالة المحتاجين والمعوزين، ومحاربة كل من أظهر

( ١ ) الجامع الصحيح للترمذي ، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلافة، ٤ /٥٠٣، حديث ٢٢٢٦، قال أبو عيسى : "وهذا حديث حسن قد رواه غير واحد عن سعيد بن جمهان، ولا نعرفه إلا من حديث سعيد بن جمهان" . وأخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في الخلفاء، ٣ / ٢١٦، حديث ٤٦٤٦ .

العداء للإسلام والمسلمين، والضرب على أيدي المتمردين والدساسين والبغاة، وإقامة حدود الله على المستحقين لها، والوفاء بالعهود والمواثيق، ومعاملة الذين احتفظوا بدينهم من أهل البلاد المفتوحة بالرعاية والحماية والعدل، ومنحهم الحرية التامة في جميع شؤونهم .

وكانوا شديدي التحري في أمور وأحوال وأخلاق عمالهم وقوادهم حين تعيينهم، وفي أثناء عملهم حتى لا يخرجوا عما اتصفوا به من أخلاق،والتزموه من حدود .وسياسة داخلية وخارجية قائمة على تعاليم القرآن، وسنة النبي ﷺ،وصالح المسلمين، والدولة [١].

وكانت السياسة الحكيمة التي اتبعها زعماء قريش عاملاً مهماً على ارتفاع شأن قريش في مكة، ثم في بلاد الحجاز جميعها، ثم في الجزيرة العربية، بل في سائر أرجاء العالم القديم . فقد كانت المعاهدات التي عقدها بنو هاشم مع الدول المعاصرة لهم بمثابة اعتراف بقريش كدولة، وهي وإن كانت تختلف عن غيرها من الدول إلا أنها الصورة التي تناسب ظروف مكة وبلاد الحجاز .

وأدى إخفاق غزو الأحباش لمكة في عهد عبد المطلب إلى ارتفاع ذكر قريش في أرجاء الجزيرة العربية فقد أدرك العرب أن العناية الإلهية ترعى قريشاً وتصد عنها أعداءها.



( ١ ) تاريخ الجنس العربي لمحمد عزة دروزة :٧ /٦ – ٧ .

## المبحث العاشر

## طبائــع قريــش

عَدّد الجاحظ ما تميزت به قريش على سائر القبائل العربية فتحدث عن كرمها، وسخائها، وتفوقها العقلي، ونضوج أفكارها، وحسن تدبيرها، وسماحة أخلاقها [١]؛ مما أهلها لأن يبتعث الله منها النبي ﷺ سيد الأنبياء، وخاتم الرسل، وناسخ كل شرعة، وحائز كل فضيلة، فنشر عددها، وجمع كلمتها، ومكّن لها في البلاد، وأوطأها رقاب الأمم، وجعل فيها خلافة النبوة، ثم الإمامة خالدة تالدة حتى يأتي المسيح ﷺ،فيصلي خلف الإمام منها .

وكانت قريش قليلاً فكثّرهم الله سبحانه، ومستضعفين فأيدهم بنصره، وخائفين أن تتخطفهم الملوك فآمنهم بحرمه بما رهصه لهم، وأراد من تمكينهم، وتغيير ممالك الأمم لهم . وقد قضى الله لها بالفضل على جميع الخليقة إذ جعل الأئمة منها، والإمامة فيها، مقصورة عليها أن لاتكون لغيرها، والإمامة هي التقدم، وهذا نص ليس فيه حيلة لمتأول .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : " الأئمة من قريشن إن لهم عليكم حقاً ولكم عليهم حقاً مثل ذلك،ما إن استرحموا، فرحموا وإن عاهدوا وفوا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين "[٢] .

---

( ١ ) فضل العرب والتنبيه على علومها، لابن قتيبة الدينوري : ص ٨٣ .

( ٢ ) مسند أحمد بن حنبل : ٣ / ٢٩، وقال محقق المسند الشيخ شعيب : (حديث صحيح بطرقه وشواهده ).

وجاء العباس إلى رسول الله ﷺ فكأنه سمع شيئاً، فقام النبي ﷺ على المنبر فقال : " من أنا ؟ فقالوا : أنت رسول الله عليك السلام قال : " أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم فرقتين، فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، وخيرهم نسباً "(١)

وجاء في عدة أحاديث ما يشير إلى أهلية قريش لتسنم هذه القيادة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : " الناس تبع لقريش مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم، والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا تجدون من خير الناس أشد الناس كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه " (٢) .

وعن معاوية بن أبي سفيان أنه قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين "(٣) . وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : " لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان "(٤) .

---

(١) الجامع الصحيح للترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله، باب ٩٧، ٥ / ٥٤٣ _ ٥٤٤، وقال أبو عيسى: ( هذا حديث حسن ).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب قريش، ٦ / ٥٣٢، حديث ٣٥٠٠ . وأخرجه أحمد في مسنده : ٤ / ٩٤ .

(٤) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب قريش، ٦ / ٥٣٢، حديث ٣٥٠١. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش، ٣ / ١٤٥٢ حديث ١٨٢٠ .

وعن جابر بن سمرة قال : دخلت مع أبي على النبي ﷺ : فسمعته يقول : " إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة " قال: ثم تكلم بكلام خفي عليَّ قال : فقلت لأبي ما قال : قال: " كلهم من قريش "[١]

ومن أهم الصفات التي أهلت قريش لقيادة الأمة الإسلامية :

**١ – العدل :**

ويتجلى العدل في أبهى صوره زمن الخلافة الراشدة، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه يقول في أول خطبة خطبها بعد توليه الخلافة :" أما بعد ، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أُرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله .. "[٢] . وقد طبق الصديق رضي الله عنه مقولته على نفسه، ذكر ابن حجر في الفتح : (وقال البخاري : "وأقاد أبو بكر " أما أثر أبي بكر وهو الصديق فوصله ابن أبي شيبة من طريق يحيى بن الحصين سمعت طارق بن شهاب يقول : " لطم أبو بكر يوماً رجلاً لطمة، فقيل ماراأينا كاليوم هنعة ولطمة، فقال أبو بكر: "إن هذا أتاني ليستحملني فحملته فإذا هو يتبعهم، فحلفت أن لا أحمله ثلاث مرات "، ثم قال له : اقتص، فعفا الرجل" )[٣] .

---

( ١ ) صحيح البخاري – حديث ٦٧٩٦، و صحيح مسلم – حديث ١٨٢ .

( ٢ ) البداية والنهاية : ٦ /٦٩٢ _ ٦٩٣، وقال ابن كثير:" هذا إسناد صحيح ".

( ٣ ) فتح الباري : ١٢ / ٢٣٨ .

**٢- الشجاعة :**

من المعلوم أن الشجاعة من أحمد الأوصاف التي اتصف بها خلفاء الرسول ﷺ، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن قيس قال: قال عبد الله – يعني ابن مسعود رضي الله عنه-: " مازلنا أعزة منذ أسلم عمر "[١]، قال ابن حجر في الفتح : (روى ابن أبي شيبة والطبراني من طريق القاسم بن عبد الرحمن قال : قال عبد الله بن مسعود : " كان إسلام عمر عزاً، وهجرته نصراً، وإمارته رحمة . والله ما استطعنا أن نصلي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر "[٢] . وروى أبو جعفر بن أبي شيبة نحوه في تاريخه[٣] من حديث ابن عباس، وفي آخره : " فقلت : يا رسول الله ففيم الاختفاء ؟ فخرجنا صفين : أنا في أحدهما، وحمزة في الآخر، فنظرت قريش إلينا فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ".

وأخرجه البزار من طريق أسلم مولى عمر عن عمر مطولاً[٤] .

وروى ابن أبي خيثمة[٥] من حديث عمر نفسه قال : " لقد رأيتني وما أسلم مع رسول الله ﷺ إلا تسعة وثلاثون رجلاً فكملتهم أربعين، فأظهر الله دينه وأعز الإسلام.

---

( ١ ) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب، ٧/ ٥١،حديث ٣٦٨٤ . وهذا الحديث مما انفرد به البخاري عن الكتب التسعة .

( ٢ ) مصنف ابن أبي شيبة : ١٢ / ٢٧، و المعجم الكبير للطبراني ١٦٢/٩–حديث ٨٨٠٦، وأورده الهيثمي في الزوائد : ٩ / ٦٣ و قال :"و رجاله رجال الصحيح".

( ٣ ) وهو مخطوط

( ٤ ) مسند البزار : ١ / ٤٠٠ .

( ٥ ) تاريخ ابن أبي خيثمة مخطوط .

وروى ابن سعد في الطبقات [١] من حديث صهيب قال: " لما أسلم عمر قال المشركون : انتصف القوم منا " [٢] .

وبلغ من شجاعة الفاروق ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال : " بينما هو في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أو عمرو ، عليه حُلَّة حَبِرة وقميص مكفوف بحرير –وهو من بني سهم ، وهم حلفاؤنا في الجاهلية –فقال: ما بالك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت . قال : لاسبيل إليك . بعد أن قالها أمنت . فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي ، فقال : أين تريدون ؟ فقالوا : نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ . قال: لاسبيل إليه ، فكرَّ الناس" [٣] .

٣ –السخاء :

السخاء عمود البر الذي هو سبب الألفة بين الناس ، ولذلك حث الله عليه ، وندب الرسول ﷺ المسلمين إليه ، وأشرف أنواع السخاء ما كان جِبِلّة من غير سؤال الناس ، وقد كان لصحابة الرسول من خيرة رجال قريش فيه القدح المُعَلّى .

فهذا أبوبكر الصديق يشهد له الرسول ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :" من أنفق زوجاً –أو زوجين – من ماله – أُراه قال : في سبيل الله – ، دعته خزنة الجنة : يا مسلم ،

---

( ١ ) الطبقات : ٣ / ٢٦٩ . وهو هنا بمعناه .

( ٢ ) الفتح : ٧ / ٥١ .

( ٣ ) صحيح البخاري – حديث ٣٨٦٤

هـذا خـير هلُـمَّ إليـه "، فقـال أبـو بكـر : "هـذا رجـل لاتـوى [١] عليـه" . فقـال رسـول الله ﷺ : " مـا نفعـني مـال قـط إلا مـال أبـي بكـر " قـال : فبكـى أبـو بكـر، وقـال : وهـل نفعـني الله إلا بـك، وهـل نفعـني الله إلا بـك، وهـل نفعني الله إلا بك "[٢].

وهـذا عمـر الفـاروق يتـصدق بـأنفس مالـه كمـا أخـرج البخـاري في صـحيحه عـن ابـن عمـر رضـي الله عنهمـا قـال : "أصـاب عمـر بخيـبر أرضـاً فـأتى الـنبي ﷺ فقـال : أصـبت أرضـاً لم أصـب مـالاً قـط أنفـس منـه، فكيـف تـأمرني بـه قـال : " إن شـئت حبـست أصـلها، وتـصدقت بهـا " فتـصدق عمـر أنـه لا يبـاع أصـلها، ولا يوهـب، ولا يـورث، في الفقـراء، والقربى، والرقـاب، وفي سـبيل الله، والـضيف، وابن الـسبيل لاجنـاح علـى من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقاً غير مُتَمَوِّل فيه" [٣] .

وهـذا عثمـان بـن عفـان يقـدم أموالـه في سـبيل الله كمـا جـاء في الحـديث الـذي أخرجـه أحمـد في مـسنده عـن ثمامـة بـن حـزن القـشيري قـال : ( شـهدت الـدار يـوم أصـيب عثمـان، فـاطلع عليـه اطِّلاعـة، فقـال : ادعـوا لـي صـاحبيكم اللـذين ألبـاكم علـيَّ . فـدعيا لـه، فقـال : نـشدتكما الله، أتعلمـان أن رسـول الله لمـا قـدم المدينـة ضـاق المـسجد بأهلـه، فقـال: " مـن يـشتري هـذه البقعـة مـن خـالص مالـه، فيكـون فيهـا

( ١ ) قوله : لاتَوَى عليه، قال ابن منظور :" أي : لا ضياع ولا خسارة " لسان العرب (١٠٦/١٤) .

( ٢ ) مسند أحمد بن حنبل : ٢ / ٣٦٦، وقال محقق المسند الشيخ شعيب :" إسناده صحيح على شرط الشيخين ".

( ٣ ) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب الوقف كيف يكتب، ٥ / ٣٩٩، حديث ٢٧٧٢ .

كالمسلمين، وله خير منها في الجنة " فاشتريتها من خالص مالي، فجعلتها بين المسلمين، وأنتم تمنعوني أن أصلي فيه ركعتين . ثم قال : أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة لم يكن فيها بئر يستعذب منه إلا رومة، فقال رسول الله ﷺ : " من يشتريها من خالص ماله، فيكون دلوه فيها كدلي المسلمين، وله خير منها في الجنة " فاشتريتها من خالص مالي، فأنتم تمنعوني أن أشرب منها . ثم قال : هل تعلمون أني صاحب جيش العسرة ؟ قالوا : اللهم نعم (١) .

٤ – الصدق :

قال الرسول ﷺ : " إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صدِّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " (٢) .

عندما أرسل الرسول ﷺ دحية الكلبي إلى قيصر الروم ليدعوه إلى الإسلام، كان في الشام يومئذ أبو سفيان بن حرب مع رجال من قريش قدموا تجاراً في المدة التي كانت بين الرسول ﷺ وبين كفار قريش بعد صلح الحديبية . يقول ابن عباس رضي الله عنهما : " .. قال

---

( ١ ) مسند أحمد بن حنبل : ١ / ٧٥، قال محقق المسند الشيخ شعيب :"إسناده حسن، هلال بن حق روى عنه جمع، وحديثه عند النسائي في " عمل اليوم والليلة " وذكره ابن حبان في "الثقات "، وباقي رجاله رجال الشيخين غير ثمامة بن حزن، فمن رجال مسلم" . وأخرجه الترمذي في جامعه، كتاب المناقب، باب مناقب عثمان، ٥ / ٦٢٧ _ ٦٢٨، حديث ٣٧٠٣، وقال أبو عيسى : "هذا حديث حسن" .

( ٢ ) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين )، ١٠ / ٥٠٧، حديث ٦٠٩٤ .

أبـو سـفيان فوجـدنا رسـول قيـصر بـبعض الـشام فـانطلق بـي وبأصـحابي حتـى قـدمنا إيليـاء، فأدخلنـا عليـه فـإذا هـو جـالس في مجلـس ملكـه، وعليـه التـاج، وحولـه عظمـاء الـروم، فقـال لترجمانـه : سـلهم أيهـم أقـرب نـسباً إلى هـذا الرجـل الـذي يـزعم أنـه نـبي، قـال أبوسـفيان: فقلـت : أنـا أقـربهم إليـه نـسباً، قـال :مـا قرابـة مابينـك وبينـه ؟ فقلـت : هـو ابـن عمـي، ولـيس في الركـب يومئـذ أحـد مـن بـني عبـد منـاف غـيري، فقـال قيـصر :أدنـوه، وأمـر بأصـحابي فجعلـوا خلـف ظهـري عنـد كتفـي، ثـم قـال لترجمانـه : قـل لأصـحابه إنـي سـائل هـذا الرجـل عـن الـذي يـزعم أنـه نـبي، فـإن كـذب فكـذبوه، قـال أبوسـفيان: واللّه لـولا الحيـاء يومئـذ مـن أن يـأثر عـني أصـحابي الكـذب لكذبتـه حـين سـألني عنـه، ولكـني اسـتحييت أن يـأثروا الكـذب عـني فـصدقته، ثـم قـال لترجمانـه : قـل لـه كيـف نـسب هـذا الرجـل فـيكم ؟ قلـت : هـو فينـا ذو نـسب . قـال: فهـل قـال هـذا القـول أحـد مـنكم قبلـه ؟ قلـت : لا . فقـال : كنـتم تتهمونـه علـى الكـذب قبـل أن يقـول ماقـال ؟ قلـت : لا . قـال : فهـل كـان مـن آبائـه مـن ملـك ؟ قلـت : لا . قـال : فأشـراف النـاس يتبعونـه أم ضـعفاؤهم ؟ قلـت : بـل ضـعفاؤهم . قـال : فيزيـدون أو ينقـصون ؟ قلـت : بـل يزيـدون . قـال : فهـل يرتـد أحـد سـخطة لدينـه بعـد أن يـدخل فيـه ؟ قلـت : لا . قـال : فهـل يغـدر ؟ قلـت : لا، ونحـن الآن منـه في مـدة، ونحـن نخـاف أن يغـدر . قـال أبـو سـفيان : ولم يمكـني كلمـة أدخـل فيهـا شـيئاً أنتقـصه بـه لا أخـاف أن تـؤثر عـني غيرهـا . قـال : فهـل قـاتلتموه أو قـاتلكم ؟ . قلـت : نعـم .قـال: فكيـف كانـت حربـه وحـربكم ؟ قلـت : كانـت دولاً وسـجالاً يـدال علينـا المـرة ونـدال عليـه الأخـرى . قـال : فمـاذا يـأمركم بـه ؟ قـال : يأمرنـا

أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة "[١].

ونستفيد من هذا الحديث أن الكذب كان يتحاشاه الناس في مكة ويخافون أن يعيروا به قبل الإسلام، فهذا أبو سفيان لا يجرؤ على الكذب وهو مشرك، فكيف بمن أسلم منهم، ولذلك لا نعجب أن يكون منهم أبو بكر الصدِّيق كما وصفه بذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال ﷺ : " اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان "[٢].

٥ – الصبر :

أخرج الطبراني في الكبير أن النبي ﷺ قال : " إن قريشاً أهل صبر وأمانة، فمن بغى لهم العواثر أكبه الله لوجهه يوم القيامة "[٣].

ويتنوع الصبر بتنوع الحدث، فهناك الصبر عند المصائب ؛كالصبر عند الصدمة الأولى، وهناك الصبر عند القتال، وهناك الصبر على الأذى، وهناك الصبر عن محارم الله، وهناك الصبر على طلب العلم، وهناك الصبر على الأمراض و المصائب و الأقدار، ومن هذه الأنواع الصبر على موت الزوج، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن

---

( ١ ) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي الناس إلى الإسلام والنبوة، ٦ / ١٠٩، حديث ٢٩٤١ .

( ٢ ) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول النبي لو كنت متخذاً خليلاً، ٧ / ١٧حديث ٣٦٧٥ .

( ٣ ) المعجم الكبير للطبراني : ٥ / ٤٥، جديث ٤٥٤٤ وصححه الحاكم في المستدرك (٨٢/٤)، و العواثر هي المكايد، كما في تهذيب اللغة للأزهري (١٩٥/٢)

أم سلمة أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :" مامن مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها ".

قالت : فلما مات أبو سلمة قلت : أي المسلمين خير من أبي سلمة ؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ . ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله ﷺ . قالت : أرسل إليَّ رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له "(١) .

ولقد صبر المهاجرون الأولون على أذى قريش، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : "أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد رضي الله عنهم، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد"(٢) .

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب مايقال عند المصيبة، ٢ / ٦٣١ _ ٦٣٢، حديث ٩١٨ .

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم : كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر بلال بن رباح، ٣ / ٢٨٤، حديث ٥٢٣٨، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي : صحيح .

٦ – نبل الرأي :

النبل : الفضل والكِبَر، ثم يستعار منه الحذق في العمل، فيقال للفضل في الإنسان : نُبْل، والنَّابل : الحاذق بالأمر ؛ وفلان أنبل الناس بالإبل، أي :أعلمهم بما يصلحها، فعن جبير بن مطعم أن رسول ﷺ قال : " إن للقرشي مِثْلَي قوة الرجل من غير قريش " فقيل للزهري : ما يعني بذلك ؟ قال : نبل الرأي[١] .وهذه أم سلمة القرشية المخزومية أم المؤمنين تشير على الرسول ﷺ يوم الحديبية بالحلق والنحر بعدما أهمَّ الناس من الصلح حتى كادوا يهلكون، فمن حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم : قال : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه :" قوموا فانحروا ثم احلقوا "، قال : فوالله ماقام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة : يانبي الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لاتكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك : نحر بدنه ودعا حالقه، فلما رأوا ذلك قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً "[٢] .

---

( ١ ) مسند أحمد بن حنبل : ٤ / ٨٣، قال محقق المسند الشيخ شعيب : إسناده صحيح على شرط البخاري.

( ٢ ) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، ٥ / ٣٢٩، حديث ٢٧٣٤ . وسنن النسائي، كتاب مناسك الحج، باب إشعار الهدي، ٥ / ١٦٩، حديث ٢٧٧١، و غما :أي بسبب الضيق.

**٧ – حنان القرشيات على أولادهن ورعايتهن لأزواجهن :**

أخـرج البخـاري في صـحيحه عـن أبـي هريـرة رضـي الله عنـه عـن الـنبي ﷺ قـال : " خـير نـساء ركـبن الإبـل صـالح نـساء قـريش أحنـاه علـى ولـد في صـغره، وأرعـاه علـى زوج في ذات يـده " [١] . قـال ابـن حجـر شـارح الحديث: المراد بالصلاح هنا صلاح الدين، وحسن المخالطة مع الزوج .

وقولـه : " أحنـاه " : أكثـره شـفقة، والحانيـة علـى ولـدها هـي الـتي تقوم عليهم في حال يتمهم فلا تتزوج، فإن تزوجت فليست بحانية .

قولـه : " علـى ولـده " في روايـة الكـشميهني " علـى ولـد " بـلا ضـمير وهـو أوجـه، ووقـع في روايـة لمـسلم " علـى يتـيم " وفي أخـرى "علـى طفـل " والتقييـد بـاليتم والـصغر يحتمـل أن يكـون معتـبراً مـن ذكـر بعـض أفـراد العمـوم، لأن صـفة الحنـو علـى الولـد ثابتـة لهـا، لكـن ذكـرت الحالتـان لكونهمـا أظهـر في ذلـك .قولـه : " وأرعـاه علـى زوج " أي أحفـظ وأصون لماله بالأمانة فيه، والصيانة له،وترك التبذير في الإنفاق [٢].

**٨ – تدين قريش :**

كانـت قـريش ومـن ولدتـه قـريش وكنانـة وجديلـة قـيس يـسمون حُمْـساً، لأنهـم تحمـسوا في ديـنهم وتـشددوا . وأخـرج البخـاري في صـحيحه عـن عائـشة رضـي الله عنهـا قالـت: (كانـت قـريش ومـن دان دينهـا يقفـون

---

( ١ ) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب إلى من ينكح، وأي النساء خير، وما يستحب أن يتخير ٩ / ١٢٤، حديث ٥٠٨٢ . صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل نساء قريش، ٤ / ١٩٥٨، حديث ٢٥٢٧ .

( ٢ ) فتح الباري : ٩ / ١٢٤ _ ١٢٥ .

بالمزدلفة وكانوا يسمون الحُمْس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله تعالى: ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس " ﴾[١] .

وأخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية وكان النبي ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه، وأمر بصيامه، فلما نزل رمضان كان رمضان الفريضة، وترك عاشوراء، فكان من شاء صامه، ومن شاء لم يصمه "[٢] .

ومن الأحكام التي كانت تتدين بها قريش في الجاهلية وأقرها الإسلام: دية النفس مائة من الإبل، واتباع حكم المبال في الخنثى، ومنها البينونة بطلاق الثلاثة، وللزوج على المرأة في الواحدة والاثنتين [٣] .

٩ – عفة المهاجرين :

العفة : هي تكلف العفاف، والنزاهة عما لا يليق . وقد مدح القرآن الكريم فقراء المهاجرين فقال تعالى : " للفقراء الذين أحصروا

---

( ١ ) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، ٨ / ٨٦، حديث ٤٥٢٠ . وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب في الوقوف، ٢ / ٨٩٣ ، حديث ١٢١٩ .

( ٢ ) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم، ٨ / ١٧٧، حديث ٤٥٠٤ . وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، ٢ / ٧٩٢، حديث ١١٢٥ .

( ٣ ) فضل العرب والتنبيه على علومها، لابن قتيبة الدينوري : ص ٨٩ .

في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً "[١] . هذه الآية نزلت في أهل الصفة وهم فقراء المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم بمكة، وجاءوا دار الهجرة لا يستطيعون زراعة ولا تجارة، فمعنى" أُحصروا في سبيل الله" : عيقوا عن أعمالهم لأجل سبيل الله، وهو الهجرة، والظاهر من قوله تعالى : " لا يستطيعون ضرباً في الأرض " أنهم عاجزون عن التجارة لقلة ذات اليد، والضرب في الأرض: كناية عن التجر، لأن شأن التاجر أن يبتاع ويبيع، فهو يضرب الأرض برجليه أو دابته [٢].



## خلاصة البحث

يقول النبي ﷺ فيما قرره من حقائق عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : " تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية، وتجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه " [٣].

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الحديث بقوله : (فالأرض إذا كان فيها معدن ذهب ومعدن فضة كان معدن الذهب

---

( ١ ) سورة البقرة : آية ٢٧٣ .

( ٢ ) انظر تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥٤٠).

( ٣ ) متفق عليه، تقدم تخريجه،.

خيراً ؛ لأنه مَظِنة وجود أفضل الأمرين . فإن قدر أنه تعطل ولم يخرج ذهباً ، كان ما يخرج الفضة أفضل منه . فالعرب في الأجناس، وقريش فيها ، ثم هاشم في قريش، مَظِنة أن يكون فيهم الخير أعظم مما يوجد في غيرهم .

ولهذا كان في بني هاشم النبي ﷺ الذي لا يماثله أحد في قريش، فضلاً عن وجوده في سائر العرب وغير العرب . وكان في قريش الخلفاء الراشدون وسائر العشرة وغيرهم ممن لا يوجد له نظير في سائر الأجناس .فلا بد أن يوجد في الجنس الأفضل مالا يوجد مثله في المفضول : وقد يوجد في المفضول ما يكون أفضل من كثير مما يوجد في الفاضل . كما أن الأنبياء الذين ليسوا من العرب أفضل من العرب الذين ليسوا بأنبياء .

والمؤمنون المتقون من غير قريش أفضل من القرشيين الذين ليسوا مثلهم في الإيمان والتقوى من بني هاشم . فهذا هو الأصل المعتبر في هذا الباب، دون من ألغى فضيلة الأنساب مطلقاً ، ودون من ظن أن الله تعالى يفضل الإنسان بنسبه على من هو أعظم إيماناً وتقوى منه ، فكلا القولين خطأ ، وهما متقابلان، بل الفضيلة بالنسب فضيلة جملة ، وفضيلة لأجل المظنة والسبب، والفضيلة بالإيمان والتقوى فضيلة تعيين وتحقيق وغاية ، فالأول يفضل به لأنه سبب وعلامة ، ولأن الجملة منه أفضل من جملة تساويها في العدد ، والثاني يفضل به لأنه الحقيقة والغاية ، ولأن من كان أتقى لله كان أكرم عند الله ، والثواب من الله يقع على هذا ؛ لأن الحقيقة قد وجدت، فلم يعلق

الحكم بالمظنة، ولأن الله تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه) [١] .

إن البيئة التي وجد فيها الرسول ﷺ، وهي قريش سكان شعاب مكة وبطاحها، قد تفاوت رجالها ونساؤها في سرعة الاستجابة لدعوة الإسلام . فهذا عمر بن الخطاب كان من مشركي قريش يوم كان أبو بكر أول رجل من قريش استجاب لهذه الدعوة، وأخذ يحببها بحكمته ورجاحة عقله ودماثة خلقه إلى طائفة من أعز شباب قريش في بطحاء مكة، من أمثال عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم من مسلمي الرعيل الأول . فهل أزرى بعمر أن تأخر إسلامه عن إسلام هؤلاء، وعن إسلام أخته وصهره ؟ .

وهذا خالد بن الوليد كان في وقعة أحد قائد خيل المشركين، وكان المفروض فيه لما عاد من غزوة أحد إلى مكة أن يكون ثملاً بخمرة ما اتفق له من نصر، فيكون ذلك أبعد له عن الاستجابة لنداء الحق . لكننا رأيناه في أوائل السنة الثامنة للهجرة يزهد في عظيم الجاه الذي كان لأبيه وبيته في أم القرى، ويخرج متوجهاً إلى المدينة ليلتحق بدعوة الحق، فيلتقي في الطريق بين مكة والمدينة بعمرو بن العاص السهمي، وعثمان بن طلحة أحد بني عبد الدار سدنة الكعبة . قال عمرو : ( فقلت إلى أين يا أبا سليمان ؟ قال خالد : والله لقد استقام للقسم،وإن الرجل لنبي، إني أذهب والله لأسلم، فحتى متى ؟ قال عمرو : وأنا والله ما جئت إلا لأسلم . وقال

( ١ ) منهاج السنة النبوية : ٢ / ٢٦٠ _ ٢٦١ .

صاحب مفتاح بيت الله الحرام مثل مقالتهما .فلما دخلوا على رسول الله ﷺ، ونظر إليهم من بعيد قال لأصحابه : " لقد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها". قال عمرو: فتقدم خالد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت : يا رسول الله : إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي . فقال ﷺ : " يا عمرو بايع فإن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله ") (١) .

ونقل الحافظ ابن حجر في الإصابة عن الزبير بن بكار : (أن رجلاً سأل عمرو بن العاص : ما أبطأ بك عن الإسلام، وأنت أنت في عقلك ؟ فأجابه : إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم، وكانوا ممن توازن حلومهم الجبال . فلما بعث النبي ﷺ فأنكروا عليه قلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا، فإذا حق بين، فوقع في قلبي الإسلام، فعرفت قريش ذلك من إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه ... وقلت لاخير في التمادي في الباطل .هذا نموذج للذين أبطأوا في إسلامهم، وإن الذي حمله أمثال عمرو وخالد من أعباء الإسلام قد عجز التاريخ عن أن يحيط بحسناته، وإن لهما ولأمثالهما من ثواب الذين دخلوا في الإسلام بسببهما . ومن نشأ على الإسلام من سلالتهم وذرياتهم، ما لا تحصيه ملائكة الرحمة) (٢).

ونخلص من هذا الكلام إلى أن أفضل قريش هم السابقون الأولون إلى الإسلام من أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي عبيدة عامر بن الجراح

---

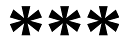
( ١ ) أخرجه أحمد في مسنده :٤ / ١٩٨ بإسناد حسن، و أخرجه الهيثمي في مسند الحارث(٩٣٤/٢) حديث ١٠٢٩.

( ٢ ) مع الرعيل الأول لمحب الدين الخطيب : ص ٢٠ _ ٢٣، بتصرف .

والـزبير بـن العـوام وسـعد بـن أبـي وقـاص وغيرهـم مـن الأولـين الـذين قـال الله فـيهم : ﴿ والـسابقون الأولـون مـن المهـاجرين والأنـصار والـذين اتبعـوهم بإحـسان رضـي الله عـنهم ورضـوا عنـه وأعـدَّ لهـم جنـات تجـري تحتها الأنهار خالين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ (١) .

وهـؤلاء هـم الـذين تـسنَّموا القيـادة الـسياسية والعـسكرية وعلـى أيـديهم المباركـة انتـشر الإسـلام في الجزيـرة العربيـة والـشام والعـراق ومـصر، وحطمـوا أعظـم إمبراطـوريتين في زمـانهم .ثـم يـأتي بعـدهم مـن تـأخر إسـلامه كخالـد بـن الوليـد وعمـرو بـن العـاص وعكرمـة بـن أبـي جهـل ومعاويـة بـن أبـي سـفيان وكلـهم كـانوا مـن خـيرة الـساسة والقـادة الفـاتحين الـذين عـرفهم التـاريخ .ولـذلك كلـه لم يكـن مـصادفة أن تكـون مكـة المكرمـة بالـذات المدينـة الـتي ينطلـق منهـا الرسـول ﷺ في بدايـة دعوتـه، وأن تكـون لغـة قـريش هـي اللغـة الـتي نـزل بهـا القـرآن الكـريم، وأن تكـون قـريش هـي القبيلـة الـتي أنجبـت النخبـة مـن أصحاب الرسول ﷺ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،



(١) سورة التوبة : آية ١٠٠ .

## المصادر والمراجع

١- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (مختارات)، تأليف: محمد بن أحمد المقدسي، دار النشر: وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق – ١٩٨٠، تحقيق: غازي طليمات

٢- إرشاد الأريب في معرفة الأديب، لياقوت الحموي، تحقيق المستشرق مرجليوث.

٣- إرشاد طلاب الحقائق، للنووي، نشر مكتبة الإيمان بالمدينة، تحقيق عبد الباري السلفي، ط١، ١٤٠٨هـ.

٤- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، للسخاوي، نشر مؤسسة الرسالة.

٥- الأمة العربية في معركة تحقيق الذات، لمحمد المبارك – الفكر الإسلامي المعاصر.

٦- الأنساب، للسمعاني، طبع دار الفكر، لبنان، ط١، ١٩٨٨ م .

٧- البداية والنهاية، لابن كثير ، طبع دار المعارف، بيروت .

٨- البداية والنهاية، لابن كثير، طبعة الريان.

٩- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني، مكتبة ابن تيمية.

١٠- بغية الطلب في تاريخ حلب، تأليف: كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، دار النشر: دار الفكر، تحقيق: د. سهيل زكار

١١- بهجة المجالس وأنس المجالس، لابن عبد البر، نشر دار الكتب العلمية، تحقيق الخولي.

١٢- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، النسخة الألمانية.

١٣- تاريخ الجنس العربي، لمحمد عزة دروزة، طبع المكتبة العصرية، صيدا، ط١ .

١٤- التاريخ الكبير، للبخاري، دائرة المعارف العثمانية.

١٥- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.

١٦- تاريخ دمشق، لابن عساكر (مخطوط).

١٧- تدريب الراوي في شرح تقريب النووي، للسيوطي، مكتبة الكوثر، تحقيق نظر الفاريابي، ط٢، ١٤٠٥هـ.

١٨- التربية الإسلامية والطبيعة الإنسانية، للدكتور مقداد يا لجن، طبع دار عالم الكتب، الرياض، ط١، ١٩٩٧ م .

١٩- الترغيب والترهيب، للمنذري، نشر دار الريان للتراث.

٢٠- تغليق التعليق، للحافظ ابن حجر، نشر المكتب الإسلامي.

٢١- تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، طبع الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ م .

٢٢- التلخيص الحبير، لابن حجر، طبع المدينة المنورة، ١٩٦٤ م .

٢٣- التنقيح في حديث التسبيح، لابن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق محمد العجمي، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤١٣هـ.

٢٤- تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر، مصورة عن الهندية.

٢٥- تهذيب الكمال، للحافظ المزي (مخطوط).

٢٦- التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، دار الفكر – بيروت

٢٧- الجامع الأوسط، للطبراني، طبع دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥ هـ .

٢٨- جامع الترمذي، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت – مصورة ..

٢٩- جامع الترمذي، للإمام الترمذي، دار الكتب العلمية – ط ١.

٣٠- الجامع الصغير، للطبراني، طبع دار عمار، عمان، ط١، ١٩٨٥ م .

٣١- الجامع الكبير، للطبراني، طبع مكتبة الزهراء، الموصل، ط٢، ١٩٨٣ م .

٣٢- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، دار الكتب العلمية.

٣٣- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الكتب العلمية.
٣٤- الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم دائرة المعارف العثمانية تحقيق المعلمي – مصورة.
٣٥- جمان الدرر، للبصروي (مخطوط)، نسخة دار الكتب.
٣٦- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣ م .
٣٧- الجواهر والدرر من ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، للسخاوي، القاهرة، ١٩٨٦م.
٣٨- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني، الريان للتراث.
٣٩- حياة الحيوان الكبرى، للدميري، دار الفكر.
٤٠- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للحافظ ابن حجر– دار الفكر – بيروت
٤١- الدعاء، لمحمد بن فضيل، نشر مكتبة لينة، ط١، ١٤١٥هـ.
٤٢- الدعاء للطبراني، دار الكتب العلمية.
٤٣- الدعوات، للبيهقي، تحقيق بدر البدر، من منشورات جمعية إحياء التراث، ط١، ١٤١٣هـ.
٤٤- ذخائر التراث العربي، لعبد الجبار عبد الرحمن، مطبعة البصرة، بمساعدة اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن (١٥) بالعراق، ط١، ١٤٠١هـ.
٤٥- رجحان الكفة في بيان نبذة من أخبار أهل الصفة، للسخاوي، تحقيق مشهور حسن ورفيقه، دار السلف، ط١، ١٤١٥هـ.
٤٦- سفراء النبي صلىالله عليه وسلم، للواء محمود شيت خطاب، طبع دار الريان، بيروت، ط١، ١٩٩٦ م .

٤٧- سلسلة الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، للمرادي، دار الكتاب الإسلامي.

٤٨- سنن ابن ماجه، للإمام ابن ماجه، ترقيم عبد الباقي، دار الريان للتراث.

٤٩- سنن أبي داود، طبع دار الفكر، بيروت .

٥٠- سنن الدار قطني، طبع دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٦ م .

٥١- سير أعلام النبلاء، للذهبي، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣ هـ .

٥٢- سير أعلام النبلاء، تأليف: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٣، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي.

٥٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد، دار الفكر.

٥٤- شرح ألفية العراقي، للعراقي، نشر مكتبة السنة.

٥٥- شرح النووي على صحيح مسلم، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢ ١٣٩٢ هـ .

٥٦- شرح صحيح مسلم، للنووي، المطبعة المصرية بالأزهر.

٥٧- صحيح البخاري، طبع دار ابن كثير، بيروت، بيروت، ط٣، ١٩٨٧ م .

٥٨- صحيح مسلم، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٥٩- صحيح مسلم بن الحجاج، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

٦٠- صيانة صحيح مسلم، للحافظ ابن الصلاح، تحقيق موفق عبد القادر، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٨هـ.

٦١- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تأليف: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار النشر: منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت.

٦٢- الطبقات، لابن سعد، طبع دار صادر، بيروت .

٦٣- طبقات الحفاظ، تأليف: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٣، الطبعة: الأولى

٦٤- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي، تحقيق الحلو والطناحي.

٦٥- طبقات الفقهاء الشافعية، لأبي عاصم العبادي، طبعة السويد.

٦٦- العبر في خبر من عبر(١)، للحافظ الذهبي، دار الكتب العلمية.

٦٧- العظمة، لأبي الشيخ الأصبهاني، دار العاصمة.

٦٨- علوم الحديث لابن الصلاح، دار الكتب العلمية.

٦٩- عمل اليوم والليلة، للنسائي، تحقيق فاروق حمادة ، نشر مؤسسة الرسالة.

٧٠- غنية المحتاج في ختم صحيح مسلم بن الحجاج، للسخاوي (مخطوط).

٧١- فتاوى السبكي، لتقي الدين السبكي، دار المعرفة.

٧٢- فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، طبع دار المعرفة، بيروت .

٧٣- فتح الباري، للحافظ ابن حجر، دار الريان للتراث، بعناية محب الدين الخطيب.

٧٤- الفتح الرباني، للسيوطي، تحقيق النبهاني، مصر .

٧٥- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، للسخاوي، الجامعة السلفية، بنارس، تحقيق علي حسين علي.

٧٦- فتوح مصر وأخبارها، تأليف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري، دار النشر: دار الفكر – بيروت – ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد الحجيري

(١) هذا الصواب بالعين المهملة، وليس من (غبر).

٧٧- فضل العرب و التنبيه على علومها، لابن قتيبة، تحقيق وليد خالص، المجمع الثقافي – أبوظبي .

٧٨- فقه السيرة، لمحمد سعيد رمضان البوطي، طبع دار الفكر، دمشق، ١٩٩٤ م .

٧٩- فهرس الفهارس والأثبات، لمحمد عبد الحي الكتاني، دار الغرب الإسلامي، تحقيق د. إحسان عباس.

٨٠- القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع، للسخاوي، مكتبة دار البيان.

٨١- الكاوي على تاريخ السخاوي (ضمن مقامات السيوطي)، للسيوطي، نشر المكتب الإسلامي.

٨٢- كتاب المرصع، لابن أثير الجزري، عالم الكتب، ط١، ١٤١٢هـ.

٨٣- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، للحاج خليفة، دار الكتب العلمية.

٨٤- الكليات، لأبي البقاء الكفوي، طبع مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٣ م .

٨٥- الكواكب الدراري شرح صحيح البخاري، للكرماني.

٨٦- الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، للغزي.

٨٧- لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، تأليف: الحافظ أبو الفضل تقي الدين محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المكي، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

٨٨- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر.

٨٩- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي، طبع مكتبة السنة، القاهرة، ١٩٩٠ م .

٩٠- المبسوط في القراءات العشر، للأصبهاني، دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن، ط٢، ١٤٠٨هـ، تحقيق سبيع حمزة حاكمي.

٩١- مجمع البلاغة، للراغب الأصفهاني، طبع مكتبة الأقصى، عمان، ط ١٩٨٦ م.

٩٢- مجمع الزوائد، للهيثمي، طبع دار الريان، بيروت، ١٤٠٧ هـ.

٩٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، مؤسسة المعارف.

٩٤- المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، للحافظ ابن حجر، نشر دار المعرفة، تحقيق د. يوسف مرعشلي، ط١.

٩٥- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، نشر عالم الكتب.

٩٦- المستدرك، للحاكم النيسابوري، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠ م.

٩٧- المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، طبع دائرة المعارف.

٩٨- مسند الإمام أحمد للإمام أحمد بن حنبل، طبعة المكتب الإسلامي.

٩٩- مسند الشهاب، للقضاعي، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦ م.

١٠٠- المصباح المنير، للفيومي، مكتبة لبنان، ١٩٨٧م.

١٠١- المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني، طبع المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣ هـ.

١٠٢- مع الرعيل الأول، لمحب الدين الخطيب – دار الفكر

١٠٣- معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ.

١٠٤- المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع.

١٠٥- المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية.

١٠٦- معجم المطبوعات العربية والمعربة، ليوسف إليان سركيس.

١٠٧- معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، طبع دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٤ م .

١٠٨- المغني، لابن قدامة، طبع دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٥ هـ .

١٠٩- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، طبع دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٢ م .

١١٠- المقاصد الحسنة، للسخاوي، طبع دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٥ م .

١١١- المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة على الألسنة، للسخاوي، دار الهجرة.

١١٢- المقتنى في سرد الكنى، للإمام الذهبي، نشر الجامعة الإسلامية.

١١٣- ملحق تاريخ التراث العربي، لبروكلمان، النسخة الألمانية.

١١٤- مناقب الشافعي، للبيهقي، تحقيق سيد صقر، مكتبة دار التراث بمصر.

١١٥- منظومة الظاهري في المصطلح مع (شرحها)، لمحمد فالح الظاهري (مخطوط).

١١٦- منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، طبع مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤٠٦ هـ .

١١٧- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تأليف: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي، دار النشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي – مصر

١١٨- نظم العقيان في أعيان الأعيان، للسيوطي، المكتبة العلمية، بعناية المستشرق فيليب حتى ١٩٢٧م.

١١٩- نفائس الدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (الهيثمي)، للسيفي (مخطوط).

١٢٠- النكت على كتاب ابن الصلاح، للحافظ ابن حجر، نشر الجامعة الإسلامية، ط١، ١٤٠٤هـ.

١٢١- النور السافر عن أخبار القرن العاشر، للعيدروس، بدون.

١٢٢- هدي الساري مقدمة فتح الباري، للحافظ ابن حجر، دار الريان للتراث، بعناية محب الدين الخطيب.

١٢٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الفكر.